

البدو في مصر والشام في القرنين السابع والثامن الهجريين عند العمري في "مسالك الأبصار"

دوروتيا كرافولسكي

يشكّل البدو في مجتمع المشرق العربي - الذي غالباً ما ننظر إليه باعتباره مجتمعاً مدينيّاً^(١) طبقة أصيلة ومستقلة (Substratum). وقد استطاع هؤلاء، بتأثير عوامل بيئية وسياسية^(٢)، أن يسودوا مجتمع الواحات المديني/الفلاحي في فترات تاريخية معينة. بل إنهم تدخلوا ببناءً لدويلات وإمارات، وصُنّاعاً لثقافات أو على العكس من ذلك: مدمرين لثقافات الواحات السالفة الذكر. وإذا أردنا أن نوافق السوسولوجي العراقي علي الوردي، كان علينا أن نمضي قدماً فنقول معه أن البداوة تشكّل الوجه الآخر لمجتمع الواحات المزدوج الوجه في المشرق العربي، حيث تتلاقى البداوة مع الحضارة فتغلب إحداها على الأخرى في عملية تشبه حالتي المدّ والجزر، بحيث أدّى ذلك إلى انقسام وازدواج في شخصية الإنسان الساكن ضمن مجال ثقافة الواحات هذه^(٣).

(*) يقع كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري (- ٧٤٩هـ) في سبعة وعشرين مجلداً. وهذه المقالة في الأصل جزء من مقدمة للقسم الخاصّ بالعرب والأعراب من «مسالك الأبصار» الذي نشرته بيروت عام ١٩٨٥.

(١) يبدأ Tritton (ترتون) مقالة له عن العرب بالقول: إنّ أهمية العرب في التاريخ الإسلامي لم تلبث أن تضاءلت ثم اختفت. أما W. Caskel (كاسكل)، فإنه خصّ العرب بدراسة أوضح فيها أهميتهم ودورهم في تاريخ الإسلام كلّ، قارن: A.S. Tritton: The Tribes of Syria in the Fourteenth and Fifteenth Centuries; in: BSOAS 12 (1948), p. 567. Caskel: Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber. Köln-Opladen 1953.

(٢) من مثل الكثافة السكانية، وسنوات القحط، والضعف السياسي في الحواضر المجاورة للبادية.

Ali al-Wardi, Soziologie des Nomadentums p. 32.

(٣)

وتبدأ مواطن البدو حيث المدينة وقراها^(١). وغالباً ما يكون هؤلاء الفلاحون في محيط المدينة في الأصل بدواً، مثل آل فضل من عشائر القبيلة العربية اليمنية: طيء. وآل فضل هم موطن الاهتمام الأول عند العمري في الفصل الذي عقده عن البداوة العربية، للدور المهم الذي لعبوه في القرنين السابع والثامن الهجريين في حياة المشرق العربي الإسلامي. يقول ماكس فون أوبنهايم عن آل فضل الذين زارهم في مطالع القرن العشرين^(٢): «تقع منتجعات الفضل في شمال غرب الجولان بين القنيطرة وبحيرة الحولة. والذي يطلع على حالتهم الحاضرة، سيكون صعباً عليه أن يتصور ولو حالماً أن هؤلاء سادوا قديماً صحراء الشام، ولعبوا دوراً مهماً في تاريخ الدولة المملوكية؛ ذلك أنهم اليوم لا يعدّون أكثر من بضعة مئات من المضارب. لكن على أي حال، فإن شيوخ آل فضل - أو بعبارة أخرى أمراءهم - ما يزالون يعدّون بين أعرق البيوتات في بلاد الشام».

لقد ظل المجتمع المدني في المشرق العربي على علاقةٍ بالبداوة العربية حتى مطالع القرن العشرين. بل إن هذا المجتمع ظل على نزاعٍ معها أيضاً^(٣). فطرق الحج والتجارة كانت تمرّ خلال منتجعات البدو ومواطن انتشارهم. ولقد كان هناك خطرٌ دائمٌ على المدن من جانب الأعراب، في أزمنة الجذب والجفاف والاضطراب السياسي؛ إذ كانوا يُغيرون عليها طمعاً في الثروات التي تحتويها بين أسوارها أو في محيطها الزراعي. وقد تكرّرت هذه الظاهرة في تاريخ المشرق العربي منذ نشأت في تلك البقاع مدنٌ وأمصارٌ ودُولٌ تُحيطُ بها أو تُحُدّها - كما تُحيطُ بالواحات - صحارى شاسعة، لا تتيح إلا حياة قاسيةً وفقيرةً للقبائل المتبدية^(٤). وفي حَقَب النزاعات العسكرية بين المدن والدول كان هؤلاء الأعراب يتحوّلون من

(١) H. Wissmann: Bauer, Nomade und Stadt im islamischen Orient p. 32.

(١)

Oppenheim: Beduinen I, 350.

(٢)

(٣) قام بطن قوي من بطون طيء بتقاضي رسوم على طريق الموصل / نصيبين منذ القرن الثامن عشر.

وكانت نصيبين ما تزال تدفع ضريبة من المال للأعراب الذين يجاورونها حتى تسعينات القرن

التاسع عشر، قارن: Bräunlich: Beiträge zur Gesellschaftsordnung der arabischen Be-

duinenstämme pp. 74-75.

(٤) قارن عن ذلك: Rothstein, Lahmidn p. 28 ff

خلال قدراتهم الهجومية إلى مرجح لإحدى كفتي الميزان؛ إذ ينضمُّون إلى الطرف الذي يشكِّل ضمانةً أكبر لمصالحهم^(١). وكلما كانت السلطة المركزية في الأمصار ضعيفةً، كلما كان نفوذهم في الحواضر أكبر، وقوتهم أظهر.

استطاع الفاتحون العرب للشام والعراق في النصف الأول من القرن السابع الميلادي أن يكسبوا ولاء وتأييد الغالبية العظمى من بدو تلك البلاد. ومنذ البداية كان على أعراب الشام على الخصوص أن يواجهوا البيزنطيين على الحدود بقيادة الفاتحين الجدد. لكن النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي) جلب معه متغيرات بالنسبة لهؤلاء الأعراب الغزاة. فقد سقطت الدولة الأموية (٧٥٠م) وقامت على أنقاضها الدولة العباسية التي أحلت محل الجند (من الأعراب والمتطوعين) جيشاً محترفاً أدَّى إلى الاستغناء عن خدمات البدو في الجهاد فأُسقطت أعطياتهم من الديوان. وشهدت الدولة البيزنطية في أوائل القرن التاسع الميلادي حقبةً من تصاعد القوة العسكرية؛ في حين بدأت قوة السلطة المركزية الإسلامية تتراجع وتضعف. وسط هذه الظروف وجد البدو العرب أنفسهم في الثغور والعواصم منفردين، وكان عليهم أن يحموا المناطق التي يتوطنون فيها في وجه إغارات البيزنطيين عليها. إلى هذه الأسباب يعود نشوء أول إمارتين بدويتين على الحدود الإسلامية/البيزنطية: إمارة آل الشيخ^(٢) من بكر بن وائل بآمد (٢٥٦ - ٢٨٦هـ/٨٧٠ - ٨٩٩م)، وإمارة بني حمدان^(٣) من تغلب بن وائل بالموصل وحلب (٣٣٢ - ٣٩٤هـ/٩٤٣ - ١٠٠٤م). وعندما ازدادت الخلافة الإسلامية ضعفاً بظهور الترك والبويهيين وسيطرتهم على عاصمتها ازداد ظهور الإمارات البدوية العربية في العراق والشام والجزيرة (المنطقة الواقعة بين الفرات ودجلة). ففي مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي؛ قدم بنو خفاجة^(٤) من الجزيرة العربية وتوغّلوا في العراق حيث تمكّنوا أواخر القرن المذكور

(١) انظر ما سبق ص ٨ ملاحظة رقم ٢.

(٢) تاريخ الطبري ٢١٨٥/٣ - ٢١٨٦، والمسعودي: مروج الذهب ١٤٥/٥ - ١٤٧، EI² «Diyār

Bakr» II, 344a

EI² «Hamdānids» III, 126a-131a.

(٣)

(٤) EI² «Khafādja» IV, 911a. ومحمد عبد المنعم خفاجي: بنو خفاجة، القاهرة ١٩٥٠.

من السيطرة على منطقة الكوفة وتهديد طرق قوافل الحجيج، وسائر مناطق العراق. أمابنو أسد^(١) فقد وصلوا إلى العراق في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي؛ فأسسوا في الحلة الإمارة المزيديّة التي اضطرّ البويهيون للاعتراف بها عام ٤٠٣هـ/١٠١٢ - ١٠١٣م، والتي استطاعت السيطرة حتى أواخر القرن الخامس الهجري على مناطق الكوفة وواسط والبصرة وهيت وتكريت. وعندما سيطر السلاجقة على العراق عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م تصدّوا لهذه الإمارات البدوية^(٢)، وتمكّنوا من القضاء عليها تدريجياً.

بيد أنّ قائمة الإمارات البدوية لا تقتصر على خفاجة وبني مزيد الأسديين. فقد شهدت الجزيرة قيام الإمارة العقيلية^(٣) في الفترة نفسها. وعلى أنقاض الدولة الحمدانية في شمال الشام أقام بنو كلاب إمارةً مستقلةً في المناطق ذاتها^(٤): أمّا الطائيون فقد استطاعت بطون منهم السيطرة على مناطق واسعة في جنوبي فلسطين والأردن^(٥).

إنّ توغلّ الأعراب في العراق والشام، وسيطرتهم على طرق الحجّ، والقوافل التجارية، والدور السياسي الذي بدأوا يلعبونه في الصراع مع البيزنطيين ثم مع الصليبيين والمغول وفي الصراعات الإسلامية الداخلية؛ كل ذلك دفع السلطات المركزية في الحواضر إلى القيام بمحاولات لكسبهم لصالحها عن طريق مراعاة مصالحهم بقدر الإمكان. أمّا الفاطميّون فقد كانت طريقتهم المفضّلة لكسب البدو رشوتهم بإقطاعات ورشوتهم بمبالغ مالية كبيرة^(٦). ولجأ الأيوبيون

(١) EI² «Asad» I, 683b-684a; EI² «Sadaqa» IV, 37a-38a; EI¹ «Mazyaditen» III, 504a-505b وعبد

الجبار ناجي: الإمارة المزيديّة، بغداد ١٩٧٠.

(٢) Caskel: Die Bedeutung der Beduinen p. 19; Oppenheim: Beduinen III, 186.

(٣) EI¹ «Okailiden» III, 1049b-1050.

(٤) EI¹ «Mirdāsiden» III, 592b-593a; EI¹ «Sālih b. Mirdās» IV, 120-121; S. Zakkār: The Emi-

rate of Aleppo. Beirut 1971; ومحمد محمد مرسي الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام ص

٩١ - ١٨٧.

(٥) الحيارى: الإمارة الطائية في بلاد الشام، عمان ١٩٧٧. ف. أ. سعيد: آل ربيعة الطائيون، بيروت

١٩٨٣.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٧٤/٢ - ١٧٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦١٥/٨، =

بالإضافة للأعطيات إلى منح رتبة الإمارة «بوق وعلم»^(١) لبعض شيوخ العرب الذي قدّموا خدّاتٍ جُلّي في الصراع مع الصليبيين، لكنّ الممالك كانوا أوّل من توصّل لحلّ مشكلة الأعراب حلاً موفّقاً. فعن طريق «إمرة العرب» التي جعلوها رتبةً عسكريةً عاليةً ضمن الجهاز الإداري^(٢)؛ انتظم البدو ضمن بيروقراطية الدولة. كانت «إمرة العرب» تُعطى لشيخ قبيلة ضخمة وذات نفوذ كبير، فتتيح له السيطرة على الأعراب في منطقة واسعة، مع ما يصاحب ذلك من إقطاعاتٍ وهدايا وأعطيات تبذلها الدولة لأمر العرب لتوزيعها على القبائل الواقعة في نطاق إمرته^(٣). أمّا ضابطُ الاتصال بين السلطة المركزية وشيوخ العرب فقد كان المهّمندار. وكان المنصب يقتضي معرفةً دقيقةً بالقبائل وأنسابها، والعلاقات المتشابكة فيما بينها؛ «إذ هو الذي كان يتلقّى الرُّسلَ والعُربانَ الواردين على السلطان ويُترجمهم دار الضيافة، ويتحدّث في القيام بأموالهم»^(٤).

وقد استقى العمريُّ في فصله عن الأعراب أكثر معلوماته عن القبائل والبطون ومناطق الانتشار من المهنمدار المعاصر لأواخر الدولة الأيوبية وأوائل الدولة المملوكية، وهو بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن أبي المعالي بن زَمّاح

= والروخداوري: ذيل تجارب الأمم ٢٣٨/٣، والفاسي: العقد الثمين ٧١/٤.

(١) يذكر العمري في فصله عن الأعراب الأمير غالباً مع البوق والعلم. ويتبين من ملاحظة للمقريزي في اتعاظ الخنفا ٣٢٧/٣ أنّ المنصب سلجوقي في الأصل وقد ورثه منهم الأيوبيون وبقي في الهرمية العسكرية المملوكية؛ وكان يُناظر أيام الممالك أمير طبلخاناه (قارن بصبح الأعشى ٨/٤ - ٩، ١٣). يقول المقريزي في الموطن السالف الذكر: «... والطُّلب بلغة الغَز هو الأمير المقدّم الذي له عَلمٌ معقودٌ، وبوقٌ مضروبٌ. وعدّة من الجند ما بين مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارساً...»

(٢) انظر أيضاً: Bräunlich: Beiträge pp. 82-87; Caskel: Die Bedeutung der Beduinen p. 20.

(٣) يرى ابن خلدون (العبر ١٨/٦) أن رئاستهم على العرب بدأت أيام الأيوبيين، يقول: «وأما ترتيب رئاستهم على العرب بالشام والعراق منذ دولة العادل ابن أيوب وإلى هذا العهد...» بيد أن الظروف السياسية في الدولة الأيوبية لا تدعم هذه النظرة. إنني أرى وجهة نظر أوبنهايم (٢٨٣/١) أوّل اعتباراً، يقول أوبنهايم: «في هذه الألقاب والمناصب أتبع الممالك مثل الأيوبيين. لكنّ اللقب (= أمير العرب) اكتسب أيامهم أهمية أكبر؛ فقد استوعبوا البدو في هرميتهم العسكرية؛ تلك التي كانت الحاملة للدولة المملوكية».

(٤) الفلقلندي: صبح الأعشى ٢٢/٤.

المعروف بابن سيف الدولة الحمداني^(١). وعلى الحمداني المهمن دار هذا اعتمد كل من القلقشندي^(٢) والمقرئزي أيضاً في معلوماتها عن الأعراب بمصر^(٣)؛ وقبائلهم وأنسابهم^(٤). ولا نعرف في الواقع كتابة عن الأعراب بعد الحمداني لم تعتمد عليه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ونستطيع أن نعتبر أنفسنا محظوظين بالحصول على رسالتى القلقشندي والمقرئزي السالفتي الذكر، واللتي نقلتا فيهما عن الحمداني نقولاً مطولة؛ إذ لولاها لما أمكن لنا أن نُعيد تركيب نص الحمداني الذي نقله العمري. ومع ذلك؛ فإنه كان علينا أن نسلّم ببقاء أخطاء عديدة في القراءة لم نستطع حلّها رغم وجود المؤلفين الثلاثة بسبب سوء المخطوطات التي وصلتنا من أعمالهم. ثم إنّ علينا هنا أن نلاحظ أنّ المعلومات المعروضة بطريق الحمداني تعود لأواخر الدولة الأيوبية وأوائل عقود الدولة المملوكية. وبعد هذه الحقبة؛ فإنّ المؤلفين الثلاثة لم يضيفوا غير القليل وفي مواطن قليلة. ويبدو أنّ المادة التي عرضها الحمداني حظيت باهتمامهم؛ لكنهم لم يكونوا يملكون معلومات خاصة في المسألة.

لقد استطاع المماليك أن يصلوا إلى اتفاقٍ طويل المدى مع القبائل البدوية، بل إنهم نجحوا أكثر من ذلك إذ أدخلوهم في بيروقراطية الدولة نفسها. لكنّ هذا الانسجام - فيما رأى - يظلّ الاستثناء وليس القاعدة فيما يتّصل بعلاقة السلطات المركزية بالأعراب. ولا شك أنّ ظروفًا سياسية خاصة بتلك الحقبة أدّت إلى النجاح في هذا الأمر. فليس هناك في التاريخ العربي وضعٌ مُشابه غير التحالف الذي قام بزعامة كندة في القرن السادس الميلادي بأواسط الجزيرة العربية. ومنذ

(١) مسالك الأبصار ٢/٣. ويذكر هو أنّه وُلد سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م (ابن حجر: الدرر الكامنة ٢٣١ - ٢٣٢ رقم ٥١١٩). وكان عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م ما يزال حياً (مسالك ٤٩/٣)؛ وانظر: هدية العارفين ٥٥٥/٢.

(٢) القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب/القاهرة ١٩٥٩، وقلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان له أيضاً/بيروت ١٩٨٢.

(٣) المقرئزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب (نشرة F. Wüstenfeld/ب. Göttingen/١٨٤٧)، ونشرة عبد المجيد عابدين بالقاهرة ١٩٦١.

(٤) ليست هناك إشارة مباشرة لاستعمال ابن خلدون لهذا المصدر في أنبائه عن الأعراب. لكنه رجع إلى العمري في مواطن أخرى؛ قارن: K. Lech: Das Mongolische Weltreich pp. 71-72.

ذلك الحين لم يحدث أن تجمعت قبائل ضخمة على شكل تحالف بزعامة شيخ واحد. إن هذه الصيغة التي نجحت في ظل السلطة المملوكية استلزمت أمرين اثنين: الأول؛ وجود دولة قوية مركزية الطابع، تمتد سلطتها على مناطق شاسعة بحيث يستحيل على القبائل استغلال الصراعات بين الأمراء والدويلات لصالحها. والثاني توافر قبيلة بالغة السطوة بين البدو بحيث يمكن للقبيلة القوية بمساعدة إدارة الدولة - أن تضبط القبائل والبطون والعشائر الأخرى. وقد تحقق الأمران في ظل السيطرة المملوكية. ففي حقبة السيطرة الفاطمية كانت بلاد الشام ثلاث قبائل متقاربة العدد والشوكة هي: كلب وكناب وطى^(١). ويبدو أن هذا المقياس تحول لصالح طىء - بل بعض بطونها - في المرحلة الانتقالية الواقعة بين انهيار السلطة الأيوبية، وقيام دولة المماليك. ومع ذلك فإن العمري يقرر أنه بقيت هناك أيام المماليك قبائل ذات سطوة كان على الطائيين أن يتعاملوا معها بحذر، وربما لم تدخل في الصراع على إمرة العرب. أو لم تستطع إزعاج الصيغة التي طورتها الإدارة المملوكية - هكذا يمكن الاستنتاج - لأنه كانت تنقصها القيادة الجامعة، ولسنا بحاجة هنا للحديث عن قوة السلطة المركزية المملوكية خصوصاً خلال القرن الأول لقيامها.

الأعراب بمصر والشام في القرن الثامن الهجري

بعد تمهيد تاريخي قصير في أصول الأنساب العربية، ينصرف العمري للحديث عن عرب الزمان الذين كانوا يتجولون أيامه بين العراق والمحيط الأطلسي. لكن القسم الأكبر من حديثه يتركز على القبيلة التي كان منها أمير العرب أيام المماليك: قبيلة طىء خصوصاً البطن الذي ينتسب إليه أمير العرب داخل طىء، ربيعة. وكانت إمرة العرب في آل مرا وآل فضل ابن ربيعة؛ من طىء. وهو يستند في معلوماته وأخباره عنهم جميعاً إلى أفضل المصادر المتوافرة أيامه: الحمداني نسبة العرب^(٢)، الذي كان يتولى منصب المهتمدار في الديوان

(١) انظر ما بعد ص ٢٦.

(٢) في الدرر الكامنة لابن حجر ٢٣١/٥ - ٢٣٢ رقم ٥١١٩: «... من ذرية سيف الدولة ابن حمدان =

المملوكي، ويعني هذا أنه كان صلة الوصل بين البلاط والقبائل. ويقتضي المنصب معرفة دقيقة بالقبائل؛ هذا بالإضافة إلى أشخاص آخرين من عشيرة أمير العرب نفسه^(١).

أما البنية الأساسية للمقدمة التاريخية عن العرب فليست من صنع العمري نفسه، بل هو يستند في ذلك إلى ابن سعيد في كتابه: نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب^(٢)، بواسطة أبي الفداء الذي اختصر في تاريخه فصول ابن سعيد عن أنساب العرب.

على أن ابن سعيد لا يشكّل مصدراً ومنطلقاً للعمري في هذا الفصل فقط من كتابه؛ بل إن علاقته بكتب ابن سعيد تتعدى اقتباس بعض الفقرات إلى مسالك الأبصار كُله. فالمعروف أن ابن سعيد كتب رسالة في فضل الأندلس قال فيها بتفضيل المغرب على المشرق الإسلامي^(٣). وقد اعتبر العمري كتابه نقداً لهذه الفكرة. ففي القسم الأول من الكتاب وصف العمري البلدان التي تتكوّن منها دار الإسلام. وفي القسم الثاني ذكر كبار الناس الذين أخرجتهم دار الإسلام لكي يتبين في النهاية أن قلب الثقافة الإسلامية، بل وأصلها المشرق الإسلامي وبلدانه وليس المغرب. ففضلاً عن أن نبي الإسلام محمداً خرج من المشرق - وفي هذا من

=. فيما يقال؛ بدر الدين بن مهندار العرب. وُلد سنة اثنتين وستاية. وكان متجنداً وله يدٌ في النظم والتاريخ، وله تصانيف في الأنساب والبديع...».

(١) من مثل فضل بن عيسى وموسى بن مُهنا (مسالك ٢/٣ - ٣).

(٢) استعملت في دراستي نشرة نصرت عبد الرحمن (عمان/١٩٨٢) لكتاب ابن سعيد: «نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب». وكان F. Trummer قد نشر ترجمة موجزة للكتاب بـ Stuttgart ١٩٢٨. كما أن M. Kropp قام بنشر القسم الثاني من نشوة الطرب (= قسم قحطان) وترجمه إلى الألمانية في سياق أطروحة للدكتوراه بجامعة هيدلبرغ عام ١٩٧٥.

(٣) قام صلاح الدين المنجد بنشر رسالة لابن سعيد في فضائل الأندلس مع رسالتين أخريين في الموضوع نفسه بعنوان: «فضائل الأندلس وأهلها لابن حزم وابن سعيد والشَّقْنَسِي» (بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م). وقد استخرجها المنجد جميعاً من «نفح الطيب» للمقري المتوفى ١٠٤١هـ/١٦٣١م (انظر مقدمة المنجد ص: س). ولا يذكر العمري في ردّه على ابن سعيد رسالة أوكتاباً معيناً لابن سعيد في ذلك؛ لهذا لا بد من بحثٍ مستقص وتفصيلي في الباقي من كتابات ابن سعيد لمعرفة المواطن والرسائل التي يستند إليها العمري في حججه معه.

الفضل ما يكفي ويُربي - فإنَّ المشرق أخرج من العلماء والقادة وصُنَّاع الدول، والجيش الجُرارة المجاهدة، ما لا يستطيع المغرب الإسلامي أن يقدم نظيراً له^(١).
هكذا أعطى العمري كتابه الضخم ذا الطابع الجغرافي بُعداً جديداً جعله بين مصادر الجنس الأدبي المعروف بفضائل البلدان.

ظهور آل ربيعة:

يرتبط ظهور طييء في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي؛ ارتباطاً مباشراً بتحالفها مع القرامطة. فقد خاضت حروباً إلى جانب القرامطة بزعامة آل الجُرَّاح، حيث شكَّلت أهمَّ عناصر جيوشهم - دون أن يعني ذلك اعتناق رجالها للمذهب القرمطي^(٢). فقد استولى القرامطة على الرملة عام ٣٦٠هـ/ ٩٧٢م^(٣)، ومنذ ذلك الحين سيطرت طييء على المدينة والجهات المجاورة لها من الجنوب، وظلَّت سيادتها هناك ظاهرةً بقيادة دَغفل بن الجُرَّاح وأعقابهِ مفرِّج بن دغفل^(٤) وحسَّان بن مفرِّج طوال قرنٍ كاملٍ كان على الفاطميين بمصر خلاله أن يحسبوا للطائنين كُلِّ حساب^(٥). وقد استطاع الفاطميون في النهاية كسب طييء إلى جانبهم عن طريق الإقطاعات والهدايا؛ ففي العام ٣٦٣هـ/ ٩٧١ - ٩٧٢م غيَّروا تحالفاتهم فتركوا القرامطة إلى الفاطميين^(٦). لكنَّ الدولة الفاطمية ظلَّت تحذر قوتهم وتقليلهم وتعمل سراً على ضربهم وإبعادهم عن مجال سيطرتها. وهكذا فإنَّ المؤرخين يذكرون في الحقبة الواقعة بين ٣٦٩ و٤٢٠هـ/ ١٠٢٨، ١٠٢٩م عدَّة

(١) شكل هذا الموضوع مقدمة قسم التراجم من مسالك الأبصار: أي القسم الثاني الذي يلي الجزء الخاص بالأعراب مباشرة (= مسالك الأبصار ٧٦/٣ - ١٥١).

(٢) Oppenheim: Beduinen I, 350, EI² «Djarrāhids» II, 482b-85a والحيارى: الإمارة الطائنية، ص ٤٥. وقارن بذييل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣.

(٣) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢، وتاريخ ابن الأثير ٦١٤/٨ - ٦١٥.

(٤) يذكر ابن خلدون (= العبر ١٥/٦) أنه توفي سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٤م.

(٥) زامبور ص ١٠٢. بيد أنه صار قديماً، وتتخلله أخطاء في التفاصيل؛ انظر: صبح الأعشى للقلقشندي ٢٠٣/٤، «Djarrahids» EI².

(٦) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣، وحسن المحاضرة للسيوطي ٦٠٠/١ - ٦٠١، والحيارى: الإمارة الطائنية ص ٤٦، EI² «Fātimids» II, 854a.

حملاتٍ فاطمية^(١) ضدَّ الطائيين الذين ردّوا من جانبهم بعنف وحاولوا تحدّي الدولة الفاطمية ليس في الشام فقط بل في عُقر دارها بمصر أيضاً. وقد توسّلوا لذلك بمبايعة خليفة من أشرف مكة في مواجهة الخليفة الفاطمي عام ٤٠١هـ/١٠١٠م^(٢) - بيد أن الفاطميين استطاعوا من جديد تسوية الأمر عن طريق المال^(٣) - ثمّ قاد الطائيون مفاوضات سرّية مع بني قُرّة القاطنين في الجهة الغربية للدلتا^(٤)، كما أقاموا حلفاً مع قبيلتي كلب وكلاب بالشام من أجل قسمة البلاد إلى مناطق نفوذ فيما بينهم عام ٤١٤هـ/١٠٢٥م^(٥). وظلّ الحلف قائماً حتى عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م حين تمكّن الفاطميّون من العودة إلى الشام والسيطرة على دمشق.

كانت هذه هي الحقبة الأولى لصعود طيّء إلى سُدّة التفوق والسيطرة وقد انتهت بوفاة رعيمها حسان بن مُفَرِّج بن دغفل عام ٤٣٣هـ/١٠٤٣م^(٦). وقد

(١) الحيارى: الإمارة الطائية ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) الروذراوري: ذيل تجارب الأمم ٢٣٥/٣ - ٢٣٩، وابن خلكان: وفيات الأعيان ١٧٤/٢ - ١٧٥، وسعيد بن البطريق: تاريخ ٢٠٠/٢ - ٢٠١، والفاسي: العقد الثمين ٦٩/٤ - ٧٩ رقم ٩٨٣، Wüstenfeld: Die Chroniken der Stadt Mekka IV, 219; EI² «Fâtîmids» II, 854a-b أكثر المصادر القديمة سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م كتاريخ لإعلان أبي الفتح الحسن بن جعفر نفسه خليفة (قارن بالعقد الثمين للفاسي ٧٥/٤). أما المصادر المتأخرة فتحدد لذلك العام ٤٠٢هـ (انظر أيضاً: Wüstenfeld, Chroniken IV, 219) والعام ٤٠٣هـ (الفاسي: العقد الثمين ٧٦/٤). ويذكر الروذراوري في ذيل تجارب الأمم ٢٣٥/٣ - ٢٣٩ تاريخاً مبكراً جداً لذلك هو العام ٣٨١هـ/٩٩٢م. لكن يمكننا غضّ النظر عن هذا الخبر تماماً؛ ذلك أنّ الحاكم الفاطمي خصم الحسن الأعصم القرمطي لم يكن في ذلك التاريخ قد وصل للسلطة بمصر بعد.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٧٤/٢ - ١٧٥، والروذراوري: ذيل تجارب الأمم ٢٣٧/٣، والفاسي: العقد الثمين ٧٣/٤ - ٧٤.

(٤) المسيحي: أخبار مصر ٦٨.

(٥) ابن العديم: تاريخ حلب ٢٢٢/١ - ٢٢٤، وابن الأثير ٢٣٠/٩، EI «Fâtîmids» II, 854b، Oppenheim: Beduinen I, 282, 352 ويقول سهيل زكّار في كتابه: The Emirate of Aleppo ص ٩٢ - ١٠١: «وقد تعاقدوا على تقسيم بلاد الشام فيما بينهم؛ بحيث تكون طيّء هي المسيطرة في فلسطين بينما تأخذ كلب منطقة دمشق، وتسود كلاب في حلب ونواحيها. وكانت خطتهم أن تتوحّد قواهم العسكرية لطرد الفاطميين من الشام، وتأسيس ثلاث إمارات بدوية مستقلة».

(٦) الحيارى: الإمارة الطائية ص ٥٣، ٥٤ - ٥٥. ولا يذكر الحيارى مصدراً لهذا التاريخ.

وجدت أسرة آل الجُرَّاح في شاعر الرملة عليّ بن محمد التهامي (توفي عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م) مادحاً مخلصاً وناشراً للأعجاد، ويكاد ديوانه يقتصر على الإشادة برجال آل الجُرَّاح ورثاء موتاهم^(١).

وأنت حقبتهُم الكبرى الثانية مع صعود عشيرة آل ربيعة من بينهم في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وينتسب الرّبعيون إلى ربيعة بن حازم بن علي بن مفرّج بن دغفل الجُرّاحي؛ وهكذا فإنهم يتحدثون من آل الجُرّاح عن طريق جدّ جانبي من رجال الأسرة^(٢). ففي أيام الملك العادل الأيوبي (٥٤٠ - ٦١٦هـ/١١٥٤ - ١٢١٨م) مطالع القرن السابع الهجري مُنح حُدُثة الرّبعي رسمياً لقب أمير العرب^(٣). ولا تحدّد المصادر معنى هذا اللقب وما يرتبط به في هذا الوقت المبكر. لكنّ أياً كانت الامتيازات المرتبطة به، فإنه لا يمكن مقارنتها بامتيازات «أمير العرب» أيام المماليك، حيث كان يتزعم القبائل العربية بالشام والحجاز والحدود العراقية^(٤). فقد كان النظام السياسي الأيوبي نظاماً كونفيدرالياً لا يعطي السلطان من أسباب القوة ووسائلها ما يستطيع به أن يُخضع قبائل ذات استقلالٍ، لزعامة أسرة بدوية واحدة.

وفي زمن ابن فضل الله العمري، في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي؛ كانت زعامة ربيعة في آل فضل من بينهم. وآل فضل هؤلاء يحتلون أهمّ أجزاء الفصل الذي خصّصه العمري لعرب زمانه.

مواطن العرب بالشام

يبدأ العمري القسم الرئيسي من فصله عن العرب بذكر مواطن انتشارهم

(١) الحيارى، ص ٥٥، F. Sezgin: GAS II, 478-79، ديوان التهامي ٢١٦، ١٩٢، ١٩٠، ١٥٥، ١٤٣، ١١٩، ١٠٧.

(٢) هذا الفرع الصغير من فروع الأسرة يتحدث من علي بن مفرّج؛ أخ الحسن بن مفرّج، قارن بالروذراوي: ذيل تجارب الأمم ص ٢٣٧، والفاسي: العقد الثمين ٧٣/٤.

(٣) مسالك ٢٩/٣.

(٤) مسالك ٢٩/٣ - ٣٠. وفي نشوة الطرب لابن سعيد ٢٢٢/١: «وها اليوم دولة العرب بالحجاز والشام...».

بالشام وفلسطين وشمال الحجاز. فبالنسبة للآتي من مصر باتجاه الشام تنتشر ابتداءً من الحدود المصرية وحتى الخروبة بطون ثعلبة بن سلامان الطائية. ثم نجد في المنطقة المحيطة بمدينة غزة القبيلة العربية الكبيرة جرم المتحدرة أيضاً من طيء^(١). وكانت بطون من جرم قد عملت مع الصليبيين في الشام مما دفع صلاح الدين لنقلها من فلسطين إلى مصر عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م^(٢). ولم يكن ذلك تصرفه الوحيد تجاه البدو بالشام، بل سبق له في حملته على الكرك عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م أن طرد أعراب تلك المنطقة من مواطنهم هناك لأنهم عملوا أدلاءً للفرنجة ضد المسلمين^(٣). أمّا بقايا جرم بفلسطين الذين كانوا ما يزالون يسيطرون بمنطقة غزة في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي؛ فإن العمري يعدُّ بطونهم وعشائهم بالمنطقة التي كانوا يسودونها^(٤). أمّا القبائل والبطون العربية الصغرى المنتشرة بالشام^(٥)؛ فإن العمري لا يتبع في تعدادها ترتيباً معيناً؛ بل يمضي على ما يبدو مستطرداً من قبيلة لأخرى تبعاً لتوارد خواطره. فهو يذكر بعد أعراب غزة أعراب الكرك ثم يتجه شمالاً فيذكر أعراب أقاليم القدس والخليل وجنين والسلط، ليتجه بعد ذلك نحو الجنوب إلى البلقاء فالصّوان، ثم يرتدّ على عقبيه إلى الكرك فالشوبك حتى الحِجر. ومن هناك يعود إلى حيث بدأ، إلى غزة فعسقلان فصرخد. والواقع أنه في هذا الجزء من حديثه لا يتجاوز ذكر أسماء القبائل والبطون والعشائر. وتبقى العلاقات النسبية لهذه الأسماء غامضة إلا في حالات قليلة؛ إذ تنكمش المعلومات عن قبائل الشام كلّها عنده على صفحة واحدة من صفحات المخطوطة لتشكل مقدمة موجزة لعرضه الواسع عن

(١) ينتسبون إلى جرم بن عمرو بن الغوث بن طيء. أما اسمهم ثعلبة فيقولون إنه اسم أمهم (مسالك ٢٣/٣، و Caskel I, 252، وجهرة ابن حزم ص ٤٠٠، ٧، II, 170، Oppenheim: Beduinen I).

(٢) مسالك ٢٣/٣، والقلقشندي: صبح الأعشى ٣٢٢/١ - ٣٢٣، والمقرئزي: البيان ص ٤، ٥ - Oppenheim: Beduinen II, 8-9, 56-62، ٦.

(٣) أبو شامة المقدسي: كتاب الروضتين ٥٢٦/٢ - ٥٢٧، H. Gibb: The Life of Saladin (Oxford, 1963) p. 9.

(٤) مسالك ٢٣/٣ - ٢٤. قارن بـ Oppenheim; op. cit., II, 59.

(٥) مسالك ٢٤/٣ - ٢٥.

آل ربيعة^(١): «ملوك البرّ، وأمراء الشام والعراق والحجاز - وهم آل فضل وآل مرا وآل عليّ من آل فضل...»؛ الذين تمتدّ مواطن تجوالهم حتى العارض والوشم على مقربة من مدينة الرياض المعاصرة بالمملكة العربية السعودية.

آل ربيعة ودورهم أيام المماليك

أما حديث العمريّ عن آل ربيعة فيبدأ بعرضٍ لسلسلة نسبهم حسبما ذكرها الحمداي؛ والواقع أنّ هناك لتحدرهم سلسلتين وليس سلسلة واحدة. وهو يوجّه نقداً عنيفاً لإحدى الروايتين في انتسابهم - وهي رواية نشرها رجال الأسرة أنفسهم! - كما فعل من بعد القلقشندي وابن خلدون^(٢) إذ إنّ أحد أمراء آل مرا عاد بنسب آل ربيعة إلى يحيى البرمكي في الأقصوصة المعروفة عن «الابن السريّ» الناجم عن العلاقة المزعومة بين يحيى البرمكي (!) والعباسة أخت الرشيد^(٣)، والتي كانت السبب - حسب الأقصوصة - في سقوط البرامكة على يد الرشيد^(٤). ومصدر هذه النسبة - التي لا بُدّ من القول بغرابتها فيما يتعلّق بنسب قبيلة عربية - أحمد بن حنّبل المتوفّى عام (٦٨٢هـ/١٢٨٣م)^(٥) من آل مرا قصّها شخصياً على ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) كاتب السر بالدولة المملوكية أيام السلطان الظاهر بيبرس^(٦). أمّا الرواية الأخرى فتجعل الجد الأعلى لآل ربيعة سلسلة^(٧).

(١) مسالك ٢٥/٣.

(٢) صبح ٣٢٤/١ - ٣٢٥، والعبر ١٤/٦.

(٣) أقصوصة الحب التي تذكرها الروايات الشعبية لا تدور بين العباسية ويحيى البرمكي، بل بينها وبين

ابنه جعفر بن يحيى، قارن بـ Oppenheim; op. cit., I, 306, El, Abbasa I, 14.

(٤) يستغرب العمري لجوء آل فضل إلى هذا النسب قائلاً: «... البرامكة وإن كانوا قوماً كراماً فإنهم قوم عجم وشتان بين العرب والعجم» (مسالك ٢٦/٣).

(٥) الحيارى؛ ص ١٤٩.

(٦) في الروض الزاهر لابن عبد الظاهر (تحقيق عبد العزيز الخويطر/الرياض ١٩٧٦) ص ٢٦٥: «سمعته يقول إنه من نسل البرامكة، من أخت الرشيد. وادعى أنها كانت زوجة يحيى بكتاب، وأنه رزق منها أولاداً، فلما جرى ما جرى هربتهم إلى البادية فأحدهم نجده...». أما المراجع المتأخّرة فتذكر جعفر بدلاً من يحيى (قارن بابن خلدون: العبر ١٤/٦)؛ بل إنّ ابن خلدون يذكر اسم ابن جعفر والعباسة: سميع!

(٧) هو سلسلة بن غنم بن ثوب بن معن بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن =

ويورد العمري ما يعتبره السلسلة الصحيحة لنسب هؤلاء حسب مصدره الثقة - الحمداني - الذي يعدّ قائمةً طويلةً تبلغ الثلاثين جدًّا بين ربيعة وطيّء^(١).
أما ربيعة نفسه فقد تميّز من بين أعقابه أربعة: فضل، وميرا، وثابت، ودغفل، الذين قامت عليهم عشائر معتبرة.

بعد هذا يغيّر العمريّ مصدره الخطّي - الحمداني - مستمداً بعض الأخبار الشفوية من أحد رجال آل ثابت، أحد المذكورين آنفاً. بيد أن رجل آل ثابت لا يُحدّث العمريّ عن عشيرته بل عن آل فضل بن ربيعة، الذين تحدّرت عنهم ثلاث بيوتات كبيرة: بيت مُهنا بن عيسى، وبيت فضل بن عيسى، وبيت حارس بن عيسى. ولآل عيسى - حسبما يذكر - حلفاء كثيرون اتّحدوا معهم من طيّيء نفسها منهم بنو كلب وبنو كلاب وبنو خالد... إلخ. وهذا دون أن يذكر حلفاء آل عيسى من قبائل العرب الأخرى؛ وذلك «أنني لا أعرف في وقتنا من لا يُؤثّر صحبتهم ويُظهرُ محبّتهم - وأمير القوم كما تقدّم أحمد بن مهنا...»^(٢) (توفي عام ٧٤٩هـ/١٣٤٩م). وهنا ينتهز العمري الفرصة فيتابع الحديث عن آل مهنا ذاكراً أوليتهم^(٣). فقد بدأ صعود آل مهنا - كما يقرر العمري - مع عيسى بن مهنا (- ٦٨٣هـ/١٢٨٤م)^(٤) الذي أظهر كرمًا ونُبلاً تجاه الظاهر بيبرس (حكم بين ٦٥٨هـ - ٦٧٦هـ/١٢٦٠ - ١٢٧٧م) بالشام عندما كان الأخير هارباً من مصر^(٥). فلمّا صار بيبرس «سلطان الديار المصرية والشامية»^(٦) عين عيسى بن

طّيّء، قارن بالقلقشندي: ص ٣٢٤/١، و CaskeL: Gamhara 252, 253, 254 Oppenheim: I, 353

(١) مسالك ٢٦/٣، وصح الأعشى ٣٢٥/١.

(٢) مسالك ٢٧/٣ - ٢٨، والحيارى ص ١٥٢.

(٣) مسالك ٢٨/٣.

(٤) EI² «Isa b. Muhannâ» IV, 87b-88a. أمّا ابن الفرات ١٢/٨ - ١٣ فيذكر تاريخاً محدّداً هو يوم الجمعة التاسع من ربيع الأول عام ٦٨٣هـ. السادس والعشرين من مايو ١٣٨٤م. وقارن بالسلوك للمقرّبي ٧٢٦/٣/١.

(٥) عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م اضطرّ بعض المالك البحرية لمغادرة مصر تحت ضغط معزّ الدين أيبك الذي أراد إزاحة شجرة الدر عن السلطة مع حلفائهم من بينهم. وقد مضوا إلى الشام جميعاً. أمّا بيبرس الذي كان بينهم فقد ذهب أولاً إلى حلب ثم عاد إلى الكرك. في ذلك الحين كانت شجرة الدر قد =

مهناً أميراً للعرب^(١)؛ فَظَلَّ زعيماً لعرب الشام والحجاز عشرين عاماً^(٢).

وتَرَدُّ بعد هذه الأنباء سُطُورٌ غير واضحة في المخطوطات تتصل بتاريخ صعود آل ربيعة أيضاً؛ إذ يمكن أن نفهم منها أن آل ربيعة كانوا قد بلغوا درجة ملحوظة من القوة في الشام في عهد طغتكين صاحب دمشق (٤٩٧ - ٥٢٢هـ/١١٠٤ - ١١٢٨م)^(٣)، ثم في عهد عماد الدين زنكي (٥٢١ - ٥٤١هـ/١١٢٧ - ١١٤٦م) وابنه نور الدين (٥٤١ - ٥٦٩هـ/١١٧٤م)؛ وقد تَوَجَّحت جهودهم من أجل النفوذ أخيراً بتعيين الملك العادل أخي صلاح الدين (حوالي ٥٤٠ - ٦١٦هـ/١١٤٥ - ١٢١٨م) لشيخهم حُدَيْثَة^(٤) من آل فضل رسمياً (بتقليد السلطان) أميراً للعرب^(٥).

وعندما وصل المهاليك البحرية للسلطة^(٦)، ساقط الأقدار بيبرس - الذي صار سلطاناً فيها بعد - إلى مضارب آل فضل أثناء فراره من وجه خصومه بمصر، ولم يكن قد بقي له غير جوادٍ واحدٍ. وقد اتَّجه بيبرس للشيخ أبي بكر بن علي بن

= قتل معز الدين أليك، وتولى مملوكه قُطْز السلطة. وقد قاتله بيبرس عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م في الصالحية فهزم أمامه ورجع هارباً إلى الشام حتى اتفق الطرفان على إيقاف خلافاتها أمام زحف المغول عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م. فعاد بيبرس إلى مصر وشارك في معركة عين جالوت المشهورة عام ١٢٩٠م؛ ثم قتل قطز وتولى السلطة؛ قارن عن ذلك: S.F. Sadeque, Baybars of Egypt S. 36-41. وانظر كلام العمري عن ذلك فيما بعد.

(٦) كذا في مصادر التاريخ المملوكي.

(١) يذكر العمري أن عيسى بن مهنا أعطاه أحسن جياده، وأكرمه غاية الإكرام (مسالك ٢٨/٣). وانظر رواية أخرى عن ذلك فيها بعض اختلاف: الروض الزاهر لابن عبد الظاهر ١١٢، ١٢٣ - يذكر فيها أن السلطان عينه أميراً للعرب عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م خلفاً لابن عمه علي بن حُدَيْثَة (إقرأ: حُدَيْثَة).

(٢) المقرئ: السلوك ٧٢٦/٣/١.

(٣) EI² «Burids» I, 1332; EI¹ «Tughtegin» IV, 898b-899a.

(٤) كذا يرد الاسم في مسالك الأبصار دائماً وليس حُدَيْثَة ولا حُدَيْثَة. ويدلُّ لصحته ما ورد في التاريخ المملوكي المجهول (Anonymus Zettersteen) ص ١٨٨ وما بعدها.

(٥) وهناك من يذكر أن صلاح الدين الأيوبي هو الذي منح حُدَيْثَة هذا اللقب للمرة الأولى، قارن:

Gottschalk: al-Malik al-Kāmil S. 73 n 2.

(٦) مع شجرة الدر عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.

حُدَيْثَةُ طَالِباً مِنْهُ إِهْدَاءَهُ جَوَاداً آخَرَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَابَعَ عَلَيْهِ فَرَارَهُ، لَكِنَّ الشَّيْخَ رَفَضَ ذَلِكَ. وَيَقُولُ الْعَمْرِيُّ إِنَّ الْمَصَادِفَاتِ اقْتَضَتْ أَنْ يَكُونَ عَيْسَى بْنُ مَهْنًا مِنْ آلِ فَضْلٍ أَيْضاً حَاضِراً عِنْدَ الطَّلَبِ وَالرَّفْضِ فَسَارَعَ إِلَى عَرْضِ جَوَارِهِ عَلَيْهِ، وَاحْتَفَى بِهِ، وَأَكْرَمَهُ وَتَرَكَ لَهُ جِيَادَهُ يَخْتَارُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ. فَلَمَّا أَعْتَلَى الظَّاهِرُ بَيْبَرَسَ عَرْشِ السُّلْطَانَةِ أَنْتَزَعَ إِمْرَةً الْعَرَبِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ حُدَيْثَةَ وَأَعْطَاهَا لِعَيْسَى بْنِ مَهْنًا. وَقَدْ زَرَعَ ذَلِكَ الشُّكُوكَ فِي نَفْسِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَلِيٍّ فَهَرَبَ مِنْ وَجْهِ السُّلْطَانِ وَلَمْ يَعُدْ إِلَى مَوَاطِنِ قَبِيلَتِهِ رَغْمَ تَأْكِيدَاتِ السُّلْطَانِ بِالرِّضَا وَالْأَمَانِ. أَمَّا عَيْسَى بْنُ مَهْنًا فَقَدْ ظَلَّ نَجْمُهُ مَرْتَفِعاً عِنْدَ الْمَالِكِ حَتَّى وَفَاتِهِ عَامَ ٦٨٣هـ/١٢٨٤م^(١). عِنْدَهَا خَلَفَهُ فِي الْإِمْرَةِ ابْنُهُ حَسَامُ الدِّينِ مَهْنًا بْنُ عَيْسَى (تُوفِيَ عَامَ ٧٣٥هـ/١٣٣٥م)^(٢) إِذْ عَيَّنَهُ لَذَلِكَ السُّلْطَانُ الْمَنْصُورُ قَلَاوُونَ (٦٧٨ - ٦٨٩هـ/١٢٨٩ - ١٢٩٠م)^(٣) وَزَادَ فِي تَجَلَّتِهِ وَإِكْرَامِهِ أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلَهُ بَيْبَرَسَ وَفَعَلَتْهُ الْإِدَارَةُ الْمَمْلُوكِيَّةُ مَعَ أَبِيهِ^(٤). أَمَّا الْقِصَّةُ الَّتِي يُورَدُهَا الْعَمْرِيُّ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ عَنْ نُبْلِ مَهْنًا وَكِبْرِيائِهِ وَالَّتِي جَرَتْ فِي وَاقِعَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحْمَدَ بْنِ حَجَّيْ (- ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)^(٥) فَإِنَّهَا تَصُحُّ فِي حَالَةِ مَهْنًا بْنِ مَانِعٍ^(٦) لَا فِي حَالَةِ مَهْنًا بْنِ عَيْسَى (- ٧٣٥هـ/١٣٣٥م). وَهَذَا غَيْرُ وَاضِحٍ فِي نَصِّ الْعَمْرِيِّ الَّذِي يُورَدُ بَعْدَ الْقِصَّةِ مَبَاشَرَةً أَخْبَارَ مَهْنًا بْنِ عَيْسَى بِمَا فِي ذَلِكَ عِلَاقَتِهِ الْمُتَوَتِّرَةِ بِالسُّلْطَانِ الْأَشْرَفِ خَلِيلٍ (٦٨٩ - ٦٩٣هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٤م).

أَدَّى التَّوَتُّرُ الَّذِي سَادَ عِلَاقَاتِ أَمِيرِ الْعَرَبِ مَهْنًا بْنِ عَيْسَى بِالسُّلْطَانِ الْأَشْرَفِ خَلِيلٍ إِلَى اعْتِقَالِ مَهْنًا بَعْدَ وَلِيمَةٍ يَقُولُ الْعَمْرِيُّ إِنَّهُ أَقَامَهَا لِلْسُّلْطَانِ،

(١) قَارَنَ بِمَا سَبَقَ (ص ٣١ ح ٣).

(٢) مَسَالِكُ ٣٤/٣ حَيْثُ يَذْكُرُ شَهْرَ ذِي الْقَعْدَةِ. أَمَّا التَّارِيخُ الْمَمْلُوكِي الْمَجْهُولُ (ص ١٩٠) فَيَذْكُرُ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ.

(٣) فِي الْمَسَالِكِ ٢٨/٣: «وَقُلَّدَ فِي الْأَيَّامِ الْمَنْصُورِيَّةِ مَهْنًا وَلَدُهُ»، وَانْظُرْ:

El² «Kalāwūn» IV, 484a - 486a.

(٤) الْمَسَالِكُ ٢٩/٣ - ٣٠.

(٥) الْحَيَارِي، ص ١٥٠.

Axel Moberg: 'Abdazzāhirs Biografie des Asraf Halil. Lund 1902.

(٦)

بمضاربته في نواحي السليمية^(١). وقد اعتقل معه ولده مظفر الدين (-٧٤٢هـ/١٣٤١م)^(٢) وأخوه محمد بن عيسى (-٧٢٤هـ/١٣٢٤م)^(٣). وعندما قُتل الأشرف خليل (٦٩٣هـ/١٢٩٤م) أُطلق سراح الأمير مهنا، لكنه لم يشعر بالأمان أيضاً في عهد خلفائه؛ يقول العمري^(٤): «... ثم إنه قدم مصر بعد ذلك مرّاتٍ وهو كالطائر الحذر الذي نُصِبَ له الشَّرْكُ بكلِّ مكان. وآخر مرة قدمها في أوائل الدولة الناصرية الأخيرة سنة عشر وسبعماية. «... وسببُ بُعْدِهِ الطويل عن مصر سوء العلاقات بينه وبين السلطان الناصر محمد بن قلاوون في فترة سلطته الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١هـ/١٣٠٩ - ١٣٤١م) إذ أُلْجَأَ مهنا عنده الأمير الكبير، ونائب السلطنة بحلب شمس الدين قراسنقر المنصوري وزميلين له هارين من وجه السلطان، ثم سَهِّلَ لهم العبورَ إلى مملكة المغول الإيلخانيين^(٥). وكان مهنا قد حاول التوسّط بين السلطان والأمراء الهارين. لكنَّ السلطان لم يجب على ذلك

(١) مسالك ٣١/٣. وكان القبض عليه في رجب سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م (قارن بالتاريخ المجهول Zetterstéen ص ٢٢). لكن بخلاف العمري؛ فإن التاريخ المملوكي المجهول لا يذكر حضور السلطان لوليمة الأمير، بل يقول إن السلطان انطلق من معسكره بحمص إلى السليمية متظاهراً بالمضي لحضور مأدبة أمير العرب؛ ثم قبض عليه، وعين مكانه محمد بن أبي بكر بن علي بن حديثة أميراً للعرب!

(٢) الحيارى، ص ١٥٢.

(٣) الحيارى، ص ١٥٠.

(٤) مسالك ٣٢/٣. ويؤكد التاريخ المملوكي المجهول هذا الخبر (ص ١٨٨) عندما يذكر أن مهنا وأخاه حديثة قدما إلى القاهرة عام ٧٣٤هـ بعد غياب دام أربعة وعشرين عاماً.

(٥) مسالك الأبصار ٣٣/٣. ويذكر التاريخ المملوكي المجهول (ص ١٥٧) المسألة كلها في جملة قصيرة لا تشعر بخطورة الأحداث، فيقول إن الثلاثة التقوا في الخامس من محرّم عام ٧١٢هـ/١٣١٢م ومضوا إلى المغول. أما المؤرخ ببلات أولجايتو أبو القاسم قاشاني فإنه يورد تقريراً مطولاً في كتابه: تاريخ أولجايتو (ص ١٢٦ - ١٤٢) عن تلك الأحداث. ويقول إن وصول الثلاثة إلى بلاط الخان وقع في الثاني من ربيع الأول عام ٧١٢هـ/١٣١٢م. وقد حصل الإمراء اللاجئون على مراغة وهمدان ونهاوند (حافظ أبرو: ذيل جامع التواريخ الرشدي ص ٤٩ - ٥٠). وتوفي قراسنقر بمراغة يوم السبت في ٢٧ شوال عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م (للتاريخ المجهول ص ١٨٠). وانظر عن قراسنقر وتلك الأحداث:

D. Little: An Introduction to Mamlūk Historiography pp. 101 - 136; G. Wiet. Un réfugié Mamlouk, Festschrift für Henri Massée, Tehran 1963, pp. 388 - 404; D'Ohsson: Histoire des Mongoles III, 547 - 553; G. Weil: Geschichte der Chalifen IV, 307 - 309.

إجابة مطمئنة. فأدت شكوك قراسنقر وزميليه بنوايا السلطان تجاههم إلى الهرب للإيلخانيين باعتبار ذلك المخرج الوحيد الباقي لهم. ويقررُ العمريُّ أنَّ مَهْنًا أرسل مع الأمراء ولده سليمان إلى أوجايتو محملاً بالهدايا والوعود فيما يتصل بتأمين طريق الحج العراقي؛ فردَّ أوجايتو بإعطاء مَهْنًا «البصرة له ولأهله ومعها الحلة والكوفة وسائر البلاد الفُراتية...». أما السلطانُ الناصرُ فقد أنتزع رُتبة أمير العرب من مَهْنًا وأعطاها لأخيه فضل بن عيسى، الذي كان قد نصح بعدم إجارة قراسنقر وتسليمه للسلطان. ولم يدخل مَهْنًا القاهرة مرةً أخرى حتى العام ٧٣٤هـ/١٣٣٤م. إذ ألزم جانب الحذر والترقب الشديدين منذ حادثة قراسنقر. لكنَّه عندما وصل إلى مصر أخيراً استقبل استقبالاً حافلاً، وأكرمه السلطان. ثم رجع فتوفى بالسلمية في ذي القعدة عام ٧٣٥هـ/١٣٣٥م، وكان قد بلغ الثمانين من العمر^(١).

أما ما يأتي بعد قصة حياة مَهْنًا بن عيسى فيعتبره العمريُّ تكميلاً، وينصَّبُ أكثره على وصف حياة البدو: مضاربهم، وخيامهم، وجيادهم، وأسلحتهم. ويستخدم العمريُّ في هذا الوصف الأسلوب الديواني البديعي لينتهي بقصيدة طويلة له «في وصف الخيل»^(٢).

أما آل عليٍّ وآل مرا والبيوت الأخرى من آل ربيعة وفروعها فلا يُخصَّصها العمريُّ بغير سطورٍ قليلة^(٣)، يعود بعدها لمتابعة توزُّع القبائل العربية في الشام^(٤)، والجزيرة والعراق، وشمال الحجاز^(٥)، ثم قبائل مصر، وأخيراً قبائل إفريقية (تونس) حتى المغرب الأقصى^(٦)، ذاكراً بطون هذه القبائل وعشائرها، مفصلاً في ذلك أحياناً وموجزاً أحياناً أخرى.

(١) مسالك ٣/٣٤. ويذكر التاريخ المملوكي المجهول (ص ١٩٠) التاريخ الدقيق: يوم الإثنين ١٨ ذو القعدة ٧٣٥هـ. وقد عين السلطان ابنه موسى خلفاً له. أما السلمية فقد كانت إقطاعاً لعيسى بن مَهْنًا مذ شارك وأبلى في عين جالوت (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، قارن بالسلوك ٢/١ ص ٤٣٣.

(٢) مسالك ٣/٣٥ - ٤٥.

(٣) مسالك ٣/٤٥ - ٥٠.

(٤) مسالك ٣/٥٠ - ٥٦.

(٥) مسالك ٣/٥٦ - ٧١.

(٦) مسالك ٣/٧١ - ٧٥.

قبائل الشام الأخرى، وقبائل العراق، والجزيرة العربية

يَعُدُّ العمري بني كلاب بين قبائل الشام الكبرى^(١). إنهم ينتشرون في نواحي حلب وحتى الدروب مع الروم، ومآثرهم في التصدي للبيزنطيين، وإغاراتهم، وغزواتهم، كل ذلك تُسَجِّلُهُ السيرة الشعبية المعروفة بسيرة الأميرة ذات الهمة^(٢). وإلى كلاب ينتسب المرداسيون الذين أسسوا إمارة عاصمتها حلب (٤١٥ - ٤٧٢ هـ/ ١٠٢٥ - ١٠٨٠ م)^(٣). وكانوا ما يزالون في عصر العمري ينتشرون في مواطنهم التاريخية القديمة، وما تزال قوتهم وشوكتهم السالفة هي هي على ما يبدو؛ إذ يذكر العمري قولاً للأمير علاء الدين أَلْطُنْبَغَا^(٤) بشأنهم يؤكد أنه لو كان لهم شيخ كفاء يجمع صفوفهم ويوحد شملهم لما استطاعت قبيلة أخرى أن تقف إلى جانبهم^(٥). ويقول العمري إن الكلابيين كانوا في زمانه يتكلمون التركية^(٦)، ويتبعون أمير العرب سليمان بن مهنا (-٧٤٤ هـ/ ١٣٤٣ - ١٣٤٤ م)^(٧) الذي أوكل إليه السلطان أمر حماية القلعة الحدودية المعروفة باسم قلعة جعبر، وكانت في ذلك الحين مَعْبَرًا مهمًّا على الفرات بين الدولتين المملوكية والإيلخانية^(٨). ومن القبائل المهمة في المنطقة آل بشار، وتمتد مناطق انتشارهم -

(١) ينتمي هؤلاء إلى تجمع قبائل عامر بن صعصعة. وكانوا قد بدأوا ينتشرون في شمالي الشام بعد فتحه، ثم عبروا الفرات وتوطنوا في الجزيرة ما عدا بني كلاب من بينهم الذين بقوا في نواحي حلب، قارن:

El¹ «Kilab» II, 1080; El², «Âmir b. Sa'sa'a», 441a - 442a; Oppenheim: Beduinen I, 225.

(٢) يقول كانار في دائرة المعارف الإسلامية، النشرة الجديدة، ٢/٢٣٤أ: «يمكننا أن نعتبر ملحمة الأميرة ذات الهمة ملحمة لبني كلاب». وانظر:

Udo Steinbach: Dât al-Himma. Kulturgeschichtliche Untersuchungen zu einem arabischen Volksroman. Wiesbaden 1972.

(٣) دراسة سهيل زكار بالإنجليزية: The Emirate of Aleppo. Beirut 1971.

(٤) كان نائباً للسلطان بحلب عدة مرات أيام سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الطويلة، قارن عن ذلك: التاريخ المملوكي المجهول ص ١٤٧، ١٦٢، ١٧٢، ١٧٧، ١٨٣، ١٨٨، ١٩٩. وتولى نيابة دمشق عام ٧٤١: (التاريخ المجهول ص ٢١٣).

(٥) مسالك ٥١/٣.

(٦) مسالك ٥٠/٣، Oppenheim I, 225; Gaudefroy-Demombynes: La Syrie 219ff.

(٧) الحيازي: الإمارة الطائية ص ١٥٢.

(٨) Krawulsky: Ilhame p. 425.

حسب العمريّ - من سنجار حتى جزيرة ابن عمر، ومن هناك حتى بغداد^(١). وهم ذوو عددٍ وسطوةٍ مثل بني كلاب، لكنّ شأنهم في فقد القيادة القادرة شأن بني كلاب؛ كما يُقرّر العمري، ولأن آل فضل يعرفون قوتهم فإنهم يعاملونهم بحذرٍ وحكمة^(٢).

أما العراق فأهمّ أعرابه قبيلتنا خفاجة وعُبادَة^(٣). وتنتشر عبادة في المناطق الواقعة بين بغداد والموصل. أمّا خفاجة فإنها تتجول بين هيت والأنبار حتى الحِلّة، والكوفة بل والبصرة أحياناً^(٤). ويجاور هؤلاء حتى الحجاز على طريق الحجّ باتجاه مكة غزّية^(٥) التي تتضمّن بطوناً كثيرةً يعُدّها العمريّ كلّها^(٦). ثم تأتي قبائل الحجاز وبتونها ومواطن انتشارها^(٧)، وأهمّ هذه القبائل: شمر^(٨) ولام^(٩) وحرب^(١٠) وأكلب^(١١).

ويتحوّل العمري ليزكر ظاهرةً مهمّةً في حياة العرب بالشام؛ فقد انتقلت

(١) مسالك ٥١/٣، Oppenheim I, 306, Gaudefroy-Demombynes: La Syrie 221.

(٢) في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري استطاع آل بشار أن يزجوا سيطرة آل فضل، ويتولوا الأمر بأنفسهم، Oppenheim I, 306 - 307.

(٣) ينتمي الخفاجيون والعباديون إلى مجموعة قبائل عُقيل الذين قدموا من شرق الجزيرة إلى العراق. وقد بقيت خفاجة في العراق، أما عبادة فتمددوا باتجاه الجزيرة الفراتية وأسسوا في الموصل الإمارة العقيلية (٣٨٠ - ٤٨٩ هـ/ ٩٩٠ - ١٠٩٦ م) وقد عادوا إلى العراق بعد سقوط دولتهم حيث شكلوا في القرن التاسع الهجري أهم قبائل منطقة واسط. قارن بعباس العزاوي: عشائر العراق ٥٠/٤ - Oppenheim: Beduinen 186, 189, El¹ «Okailiden» III, 1049b - 1050. ٥٦

(٤) انظر عن عبادة وخفاجة:

El² IV, 911b, IV, 910b - 912a; Oppenheim II, 219 - 220, III 214 - 218, 280 - 281.

(٥) الفلقشندي: صبح ٣٢٣/١، قلائد ص ٨٧؛ Oppenheim III, 408 - 413

(٦) مسالك ٥١/٣ - ٥٢، والعزاوي: تاريخ العراق ٥٢/٤. ويوجز أوبنهايم (Beduinen III, 409) تاريخ غزّية حتى مطالع العصر الحديث، فيذكر أن بطوناً كثيرة من غزّية اتجهت في القرن الخامس عشر الميلادي شمالاً باتجاه الفرات إلى المواطن التي كانت قبيلتنا عبادة وخفاجة قد تركتها.

(٧) مسالك ٥٣/٣ - ٥٥.

(٨) El¹ «Shammar» IV, 330b - 331b; Oppenheim: Beduinen I, 131 - 165, III, 37 - 53.

(٩) El¹ «Lâm» III, 14a - 14b; Oppenheim: Beduinen III, 459 - 474.

(١٠) El² «Harb» III, 179b - 180a; Oppenheim: Beduinen I, 252 - 255; III, 63 - 71.

(١١) Oppenheim: Beduinen II, 330, 441.

بطون كثيرة «من صليبة العرب» من حياة الحِلِّ والترحال إلى حال الاستقرار في المدن والقرى، ولهذا لا يذكرهم العمري مع الأعراب بل يُفردُهم بالذكر بادئاً بآل تميم الداري^(١) المتوطنين بغزة والخليل، ثم يمضي من مدينة إلى مدينة ومن منطقة إلى منطقة ذاكرًا الأعراب الذين استقروا فيها من الجنوب إلى الشمال إلى أن يبلغ الرّحبة على الفرات.

أعراب مصر

بهذا يختتم العمري معالجته للأعراب بالشام والعراق والحجاز فينتقل إلى مصر^(٢). وهنا ينتهز الفرصة فيذكر في البداية شيئاً عن تاريخ آل فضل الله بمصر. يقول العمري إنَّ عشيرته أصلها من قریش، وتحدّر من عمر بن الخطاب، ولهذا تحمل النسبة المعروفة «العمري»^(٣).

وقد وصلت العشيرة في الأصل إلى مصر أيام الفاطميين في عهد الخليفة الفائز (٥٤٩ - ٥٥٥هـ/١١٥٤ - ١١٦٠م) عندما كان الملك الصالح طلائع بن رزّيك^(٤) (٤٩٥ - ٥٥٦هـ/١١٠١ - ١١٦١م) يتولّى الوزارة. وكان القادمون جماعةً من آل عديّ بن كعب، وهو البطن القرشيّ الذي ينتمي إليه عمر بن

(١) «Tamime al-Dâri» IV, 700a - 70a. وفي المرويات أنَّ النبي محمداً أقطع تميم الداري وآله إقليم الخليل، وكان كتاب الإقطاع ما يزال بأيدي ورثته، وقد رآه العمري عندما زار الخليل عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤ - ١٣٤٥م ثم سجله فيها بعد. قارن بمسالك الأبصار ١/١٧٣ - ١٧٦.

(٢) ترك لنا المقرئ رسالة في أعراب مصر. وهو يستعمل فيها مصدر العمري نفسه؛ يعني الحمداني. ويبدو أن فصل العمري عن الأعراب كان الباعث للمقرئ على تأليف رسالته لأنه كان يعرف كتاب العمري جيداً. وقد طبعت دراسة المقرئ مرتين حتى اليوم وترجمت إلى الفرنسية والألمانية، انظر:

Quatremère: Mémoires sur les tribus Arabes établies en Egypte pp. 190 - 219; Wüstenfeld:

El-Macrizi Abhandlung über die in Aegypten eingewanderten Stämme pp. 409 - 492.

المقرئ: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب. نشر عبد المجيد عابدين/ القاهرة

١٩٦١.

(٣) كتب العمري دراسةً عن أسرته ورجالاتها وفضائلها ما تزال ضائعة حتى الآن بعنوان: فواضل السمر في فضائل آل عمر. وقارن بالقلقشندي: قلائد الجمان ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٤) «Talâ'ic b. Ruzziq» IV, 688a - b

الخطاب. ومن بينهم بيوت من آل عمر على رأسهم خلف بن نصر العمري من سلالة عمر بن الخطاب^(١)، وهو الجد الأعلى للمؤلف ابن فضل الله. ويشيد العمري بالعلاقة الطيبة التي كانت تربط جدّه هذا بطلائع بن رزّيك^(٢) «على مخالفة المعتقد»^(٣). وربما كان هذا التقليد المتوارث في أسرته عن حسن علاقتها بالفاطميين وراء موقفه الإيجابي من الدولة الفاطمية بخلاف كثير من المؤرخين والأدباء^(٤). وقد تمثل هذا في قصيدة أثنى عليهم فيها؛ حفّظها لنا السيوطي^(٥).

وما يأتي بعد الحديث عن أسرة المؤلف من حديث عن أعراب مصر مصدره الوحيد تقريباً الحمدانيّ المهمندار. أمّا جذام^(٦) فهم أول الأعراب القادمين إلى مصر إذ حضروا الفتح مع عمرو بن العاص^(٧). ويكتفي العمريّ بذكر جذام كمقدمة تاريخية لمجيء العرب لمصر، ثم يعود - متبعاً الحمدانيّ - لطريقته في ذكر القبائل التي رأيناها في أعراب الشام؛ فيعدّ القبائل المتوطنة بمصر ومواطن انتشارها وبطونها مبتدئاً بكتاب القبائل ومن مصر العليا (الصعيد): بنو هلال في أسوان^(٨)،

(١) يذكر ابن حزم (جهرة أنساب العرب ١٥٠ - ١٥١) النسب على النحو التالي: عمر - الخطاب - نفيل - عبد العزى - رباح - عبد الله - قرط - رزّاح - عدي بن كعب.

(٢) هذه الإشادة الظاهرة بالعلاقة مع الوزير الفاطمي؛ لا بد من فهمها في إطار الضعف الذي أصاب سلطة الخلفاء الفاطميين؛ الذين كانوا يصلون غالباً إلى السلطة وهم أطفالاً صغاراً؛ فقد كان عمر الفائز الفاطمي مثلاً خمس سنوات (El² «Fâtîmids» II, 856b - 858a). وفي حالة طلائع بين رزّيك، فإن التنويه بالعلاقة به من جانب العمريّ له أهمية خاصة فقد كان يملك من أسباب القوة ما لم يتوافر من قبل لبعض الخلفاء الوزراء؛ بحيث كان يمكن اعتباره حاكم الدولة الفاطمية الفعلي. وقد زوج ابنته من العاضد آخر الخلفاء الفاطميين.

(٣) «كان طوال حياته دعامة مهمة من دعائم المذهب الإسماعيلي»؛ - El¹ «Tala'ib. Ruzsik» IV, 688a -

b

(٤) El² «Fâtîmids» II, 851b - 582a

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة ٦٠٩/١ - ٦٠١.

(٦) قارن عنهم: El² «Djudhâm» II, 573b.

(٧) قارن أيضاً بالمقرئزي: البيان والإعراب ص ٢٣. ويقع فتح مصر بين عامي ٢١٨ و٢٣٩ هـ -

٦٤١ م.

(٨) انظر أيضاً: المقرئزي: البيان ص ٢٧ - ٢٨.

وبَيْلٍ في نواحي إخميم^(١)، وجُهينة حول منفلوط وأسيوط^(٢)، وقريش في نواحي الأشمونين^(٣)، ولوثة في البهنسا والجيزة^(٤)، وبنو كلاب في الفيوم^(٥). بعد هذا يبدأ العمري بذكر بطون هذه القبائل الكبيرة وفروعها وعشائرها، رابطاً مختلف أجزائها بأصلها القبليّ الأول.

أمّا فيما يتصل ببني هلال، فالغريب أن العمري لا يذكر هنا ولا في فقراته عن أعراب إفريقية والمغرب الدور التاريخي الكبير الذي قاموا به في «الفتح الثاني» لشماليّ إفريقية. ويلفت الانتباه ما ذكره عن القُرَشِيِّين بالصعيد، الذين يسمّى ديارهم «بلاد قريش»، وتقسيمه لهم إلى أشرافٍ من قريش و«غير أشراف»^(٦). أمّا الأشراف فهم العشائر الطالبية، مثل أعقاب جعفر الطيّار المعروفين باسم الجعافرة^(٧). ومثل أولاد عليّ بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب المعروفين باسم الزيانبة؛ نسبةً لزينب بنت عليّ بن أبي طالب أمّ علي بن عبد الله^(٨). وكان الجعافرة بزعامة شيخهم حصن الدين تغلب^(٩) قد ثاروا في عهد عزّ الدين أيبك (٦٤٨ - ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧ م) ثاني ملوك المماليك البحرية^(١٠)، واتّصلوا بالملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي^(١١) صاحب دمشق وحلب؛ لأنّ حصن الدين تغلب «كان قد أنف من إمارة المعزّ والدولة التركية»^(١٢). فأرسل الوزير

(١) المقرئزي: البيان ص ٢٩ - ٣٢.

(٢) المقرئزي: البيان ص ٣٢ - ٣٣.

(٣) المقرئزي: البيان ص ٣٣ - ٤٩.

(٤) المقرئزي: البيان ص ٤٩ - ٦١.

(٥) لم يتعرض المقرئزي لهم بالذكر.

(٦) انظر عن مفهوم الأشراف: K. Ohrnberg: The Offsprings of Fatima pp. XVII-XVIII.

(٧) مسالك الأبصار ٥٩/٣. وقارن بالمقرئزي: البيان ص ٣٣.

(٨) مسالك الأبصار ٥٩/٣. وقارن بالمقرئزي: البيان ص ٣٤. وانظر عن الأسماء في القبائل العربية:

Bräunlich: Beiträge zur Gesellschaftsordnung, pp. 88 - 94.

(٩) المقرئزي: السلوك ٣٨٦/٢/١.

(١٠) زامبور ص ٩٧.

(١١) كان الأمر ثورة على المماليك الذين كانوا قد وصلوا للسلطة منذ وقتٍ قليلٍ؛ لصالح الأيوبيين الذين فقدوا السلطة بمصر، وبدأوا يفقدونها بالشام.

(١٢) مسالك الأبصار ٦٠/٣.

الأسعد هبة الله بن سعيد الفائزي^(١) جيشاً لقتاله . لكن العمري يقول إن الممالك لم يستطيعوا هزيمته والقبض عليه إلا في عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ - ١٢٧٧م)، وقد سجن في الإسكندرية؛ حيث خنق في السجن .

أما غير الأشراف من قریش فيذكر منهم العمري بني طلحة - الذين قدموا إلى مصر في القرن الخامس الهجري كما يذكر ابن حزم^(٢)، وبني الزبير وبني شيبه وبني مخزوم الذين ينتسبون لخالد بن الوليد ولا يوافقهم النسابون على ذلك لانقراض نسل خالد^(٣)؛ وبني أمية وبني زهرة وبني سهم . ثم يفصل عدد بطون هؤلاء وعشائهم مُرجعاً كل فريقٍ إلى أصله القبلي الأعلى^(٤).

وتتوَّطنُ إلى جانب هؤلاء بالصعيد مجموعاتٌ عشائريةٌ تدَّعي الانتساب إلى الأنصار يذكر العمري من هؤلاء بني محمد الذين يُرجعون نسبهم إلى حسان بن ثابت شاعر النبي، وهو خزرجي من المدينة المنورة . وهناك أيضاً بنو عكرمة الذين ينتسبون إلى الأوس، ويرون في سعد ابن معاذ صاحب النبي المشهور جدَّهم الأعلى^(٥).

ويذكر العمري قبيلة لواتة البربرية^(٦) بين المتوطنين في الصعيد، وذلك من خلال بطنين كبيرين: بنو بلار (البلاارية) وبنو حدو خاص . أما الحدو خاص فينتشرون من الجيزة بجوار القاهرة، في حين ينتشر البلاارية بالصعيد في طنبدي

(١) يذكر ابن إياس أنَّ الفائزي المذكور (بدائع الزهور ٣٠١/١/١) صار وزيراً في عهد الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز (٦٥٥ - ٦٥٧هـ/ ١٢٥٧ - ١٢٥٩م) عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م . لكنه أثار عليه المالك، وقُتل في العام نفسه . لكن ابن الدواداري (كنز الدرر ٢١/١/٨) يذكر أنه صار عام ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م وزيراً لعز الدين أيبك؛ مما يتفق وما ذكره العمري في نصه هنا . ويختلف نص المقرئ (البيان ص ٣٨) هنا عن نص العمري مع أنَّ مصدرهما واحد هو الحمداني .

(٢) جهرة أنساب العرب ١٣٧ .

(٣) جهرة أنساب العرب ١٤٨ .

(٤) مسالك ٦٠/٣ - ٦٢ .

(٥) El^١ «Sa°d b. Mu°adh» IV, 31b - a2a

(٦) مسالك ٦٢/٣ - ٦٣؛ El^٢ «Lawâta» V, 964b - 697a وبخاصة ٦٩٥ - ب .

والبهنسا وأقلوسنا وحتى شفت بوجرجا^(١). ومن البلارية يتحدّر بنو مَغَاغَة الذين سُمّيت باسمهم البلدة المعروفة الواقعة شمالي طنبدي^(٢). وللواتة وجودٌ أيضاً في الدلتا بالمنوفية^(٣). والعمرى لا يُطيلُ في قضية نسب البربر، فهو يذكر الرأى القائل بعودتهم إلى قيس عيلان^(٤)، وأنّ جدّهم الأعلى إسماعيل، جدّ العرب والشعوب الأخرى التي يرى بعض النسابة أنها بادت وأنقضت^(٥). لكنّه لا يذكر الأنجاء الآخر القائل بأنّسابهم إلى حمير^(٦)؛ بل يكتفي بذكر التقليد العربي/البربري الذي يرى أنّ البربر كانوا حلفاء لجالوت، وأنهم تركوا فلسطين إلى المغرب بعد موته^(٧).

وينتقل العمرى من الصعيد إلى الحوف، وبتعبير آخر إلى الحوفين: الغربيّ والشرقيّ، أي غرب الدلتا، وشرقها^(٨). ففي هذه النواحي كانت جُذام تُقيم منذ القديم، منذ دخولها إلى مصر مع عمرو بن العاص ومشاركتها في الفتح. وكانوا يملكون في الحوفين إقطاعاتٍ كبيرة^(٩)، حتى كانت أيام صلاح الدّين الأيوبيّ (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ/ ١١٦٨ - ١١٩٣ م) الذي اقتطع بعض أراضيهم لصالح بني ثعلبة، وهم بطنٌ من طيّء. وكان لثعلبة وجودٌ في الحوف من قبل، لكنّه كان وجوداً ثانوياً إذا قورن بحضور جُذام^(١٠) فلما اشتدّ الصراع الإسلامي/الصليبيّ

(١) انظر عن الأماكن المذكورة: H. Halm: Lehenregister

(٢) هكذا يذكر Lewicki أيضاً في El² 695a

(٣) مسالك ٦٣/٣، ٦٨ - ٦٩.

(٤) ابن حزم: جمهرة ص ٤٩٥، وابن عبد البر: الإنباه ص ٢٤ - ٢٦، وابن خلدون ١٧٦/٦ -

Caskel: Gamhara II, 92. : ١٧٧

(٥) ابن حزم: جمهرة ص ٧، ٤٩٥ - ٤٩٨.

(٦) ابن حزم ص ٤٩٥، والمقرئزي: البيان ص ٤٩ - ٥٠، وابن خلدون ١٧٧/٦.

(٧) سورة البقرة/ ٢٤٩ - ٢٥١؛ Horovitz: Kora- R. Paret: Der Koran; Übersetzung pp. 37 - 37; Horovitz: Kora- niŝche Untersuchungen p. 106; El² «Ayn Djâlût» I, 786b - 787b; El² «Djâlût» II, 406a-404b.

(٨) ياقوت: معجم ٣٦٥/٢ لفقرة السابقة على الحقبة المملوكية. وانظر عن الحقبة المملوكية حيث ضمّ

الحوف إلى ناحية البحيرة: Halm: Lehenregister S. 390

(٩) مسالك ٦٥/٣، والمقرئزي: بيان ص ٢٣؛

Caskel: Gamhara II, 264; El¹ «Djudhâm» I, 1106a.

(١٠) «وجميع إقطاع جُذام كان في مناشير جُذام من زمن عمرو بن العاص»، مسالك ٦٥/٣.

نقل صلاح الدين ثعالبه الشام إلى الحوف؛ لأنهم - كما يقول العمري - عملوا بالشام مع الصليبيين^(١). وهناك مسألة أخرى تتعلق بجُذام يتناولها العمري بالمعالجة فقد كانت نسبتهم مختلفاً فيها: هل هم من عرب الشمال أو عرب الجنوب. وأدّى هذا الغموض إلى نزاع أيام بني أمية. ومع أن الجُذامين أنفسهم أكدوا انتبأهم إلى العرب الجنوبيين؛ فإنَّ النسَّابين لم ينسوا هذا التنازع القديم في تحذُّرهم النسبي^(٢). وجُذام مصر خمسة بطون كبرى ينتسبون إلى زيد ابن جُذام؛ وهم هلبا سويد، وهلبا بعجة، وبرذعة، ورفاعة، وناتل^(٣). لكنَّ العمري يفصِّل في حالة هلبا سويد فقط؛ فقد حصلوا على ألقاب ورُتب وإقطاعات وأعطيات أيام الأيوبيين^(٤). ثمَّ كان منهم أميرُ العرب بمصر خثعم بن نُمي؛ إذ عيّنه لهذا المنصب الملك المُعزُّ عزُّ الدين أيُّبك (٦٤٨ - ٦٥٥ هـ/١٢٥٠ - ١٢٥٧ م). وعندما توفِّي خلفه في المنصب ولداه سُلمى ودَغش^(٥). وهناك بطنٌ سادسٌ من جُذام رآه العمري حقيقاً بالذكر؛ وهم أولاد محمد من سُلالة زيد بن حرام بن جُذام. فمن أولاد محمد هؤلاء أولاد العجَّار الذين كانوا يتوارثون منذ أيام صلاح الدين (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ/١١٦٨ - ١١٩٣ م) منصبَ قائد قافلة الحج، والمقصود هنا طريق الحاج من قُوص إلى عَيْذاب^(٦).

(١) مسالك ٢٣/٣، ٦٩، والمقريزي: البيان ص ٤، ٥، ٢٣. وعلى العكس من ذلك؛ فإنَّنا نقرأ أنَّ ربيعة من طيء كانوا مع صلاح الدين عندما حاصر تبين (عام ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م). قارن بالفتح القسِّي ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) الأغاني ٣١٤/٩ - ٣١٥، والمسالك ٦٤/٣، وجمهرة ابن حزم ص ٤٢١،

Oppenheim: Beduinen II, 333; El «Djudhâm» I, 1105a - b.

وانظر عن المسألة:

Kister: Notes on Caskel's Gamharat an-Nasab; in: Oriens 25/26 (1976) pp. 54 - 61.

(٣) مسالك ٦٤/٣؛ والمقريزي: البيان ص ١١ - ١٢، وابن عبد البر: الإنباه ص ٧٣، والحازمي: عَجالة ص ٣٨ - ٣٩.

(٤) مسالك ٦٥/٣، والطبري ١٧٤٣/١ - ١٧٤٤.

(٥) مسالك ٦٥/٣ - ٦٦، والمقريزي: البيان ٢٣ - ٢٥.

(٦) مسالك ٦٧/٣، والمقريزي: البيان ص ٢٦؛

Quatremèrre: Description du désert d'Aidab p. 162 (Mémoires Géographiques II, Paris 1811).

ويبقى أخيراً من جذام بطن بني سعد، وقد ذكر العمري أنه تركب من خمس عشائر تحمل نفس الاسم، وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء قد استقرت أيام العمري، وصارت تمارس الأعمال الزراعية^(١). وبقيت أجزاء صغيرة من بني سعد متبديّة تمارس الإغارة على الفلاحين^(٢). ومن بني سعد هؤلاء الوزير الفاطمي المعروف شاور^(٣) الذي ورر للعاضد (من المحرم إلى رمضان عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢ - ١١٦٣م ثم من ٥٦٠ إلى ٥٦٣هـ/ ١١٦٤ - ١١٦٧م). وكان بنو شاور يملكون ناحية مئنة غمر^(٤). ومنهم أيضاً بنو عبد الظاهر كتاب السر والديوان بالدولة المملوكية^(٥).

ويذكر العمري الدلتا بمصر متجهاً إلى الغرب، إلى ناحية برقة^(٦)، ومبتدئاً ببني سليم من قيس عيلان^(٧). ومع أن الجغرافيين يعدّون برقة من أعمال مصر من الناحية الإدارية^(٨)؛ فالظاهر أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتي؛ خصوصاً في المرحلة الانتقالية الواقعة بين نهايات الدولة الأيوبية وبدايات الدولة المملوكية. يدلّ على ذلك أن ابن عبد الظاهر كاتب سيرة الملك الظاهر بيبرس يتحدث عن مساعي السلطان لاستتباع برقة^(٩). أمّا العشيرة السلميّة المسيطرة على القبائل ببرقة فإنها كانت منقسمة بشأن الخضوع لبيبرس أو عدمه. فأما فصيلة «أولاد عزاز

(١) مسالك ٦٧/٣ - ٦٨.

(٢) مسالك ٦٨/٣.

(٣) المقرئ: اتعاط الحنفا ٣/٣٠١، ٢٥٩، ٨٣، EI¹, IV, 365a-366a.

(٤) عن هذا المكان، انظر: Halm: Lehenregister p. 61, 311, 651.

(٥) أشهر رجالات هذه الأسرة محي الدين ابن عبد الظاهر؛ كاتب السر، ومؤرخ الظاهر بيبرس أكبر سلاطين دولة المماليك البحرية؛ قارن الصفدي: الوافي ١٧/ رقم ٢٤٠،

El² «Ibn 'Abd Al-Zāhir» III, 679a - 680b.

(٦) يذكر ابن عبد الظاهر برقة باعتبارها «بلاداً عظيمة» تتضمن عدة مدن وموانئ، وتشتهر بالخيول العربية، والجمال، والأغنام، والعسل، والشمع، والقطران، كما أن فيها غابات كثيفة. ويقول العمري إن المدينة الرئيسية فيها تسمى المرج (الروض الزاهر، ص ٤١٥). وهكذا فإن المرج ليست تأسيساً جديداً بعد العام ١٨٤٠م كما جاء في: EI², 1049b.

(٧) قارن عن قيس عيلان ومواطنهم ببرقة: نشوة الطرب ١٩/٢ - ٥٢٥.

(٨) EI² «Barqa» I, 1049a.

(٩) الروض الزاهر ٢٦٨، ٤١٤ - ٤١٥.

بن مقدّم» الذين يذكر لنا العمري مجموعة من أسماء وجوهمهم^(١)؛ فإنهم كانوا يَرَوْنَ الولاء لمصر وللظاهر بيبرس^(٢). في حين كان بلبوش: «الذي ساد ثلاثون جدًّا من جدوده بركة دون أن يخضعوا لأحدٍ أبداً»^(٣)، يحاول إفشال خطة السلطان المملوكي لإعادة ضمّ بركة إلى مصر. بيد أن الممالك دعموا حملة قادها أولاد عزاز بن مقدّم والأعراب المواليون لهم - استطاعت أن تهزم بلبوشاً في ١٣ ذي الحجة ٦٧١هـ/يونيو ١٢٧٣م، وجُلب في الأصفاد إلى مصر حيث عفى عنه الظاهر بيبرس وعيّنه أميراً على أعراب بركة؛ لكنه تُوُفِّي في طريق العودة إلى بركة فصارت الإمارة لأولاد عزاز بن مقدّم^(٤). وكانت بطون من سليم قد جاءت مع بني هلال إلى مصر في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي^(٥)، ثم أرغمها الخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦هـ/٩٧٥ - ٩٩٦م) بعد أن تغلّب على القرامطة، على المصير إلى صعيد مصر؛ لآتهامه لبطون منهم بالجزيرة العربية بالتعاون مع القرامطة^(٦). ثم دفع الياوزري؛ وزير الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧هـ/١٠٣٥ - ١٠٩٤م) بني هلال لاقتحام إفريقية. لهذا استولى الهلاليون عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م على بركة، ثم تابعوا مسيرهم إلى تونس بعد أن تركوا بركة لبني سليم. ولم تندفع سليم من بركة باتجاه إفريقية إلا في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي^(٧).

ويبدو أن في نصّ العمريّ هنا نقصاً. ذلك أننا نعلم منه أسماء أمراء البحيرة، وهي الناحية الواقعة بغربي الدلتا، وعاصمتها دمنهور^(٨)، لكنه لا يذكر في هذا الموطن شيئاً عن القبائل نفسها، بل يبدأ الحديث فجأة عن القبائل بين

(١) المسالك ٧١/٣.

(٢) الروض الزاهر ص ٢٦٨.

(٣) الروض الزاهر ص ٤١٥.

(٤) المسالك ٧٠/٣ - ٧١، والروض الزاهر ص ٤١٤ - ٤١٥.

(٥) يذكر المقرئ في البيان والإعراب ص ٦٥ أن أول فصائل سليم دخلت مصر عام ١٠٩هـ.

(٦) El² «Hilâl» III, 385b; El¹ «Sulaim» IV, 560a-b.

(٧) El² «Hilâl» III, 386a; El¹ «Yâzûrî» IV, 1269b-127a.

(٨) انظر عن البحيرة: Halm: Lehenregister p. 390 ff.

إفريقية والمغرب. يعني حتى المحيط الأطلسي.

أما المقرئ فيذكر أن البحيرة كانت حتى العام ٤٤٣هـ/١٠٥١م إقطاعاً لبني قُرّة^(١)، أحد بطون قبيلة جُدام^(٢). لكن في العام المذكور هزمتهم حملة فاطمية وأخرجتهم من ديارهم مما اضطرهم للهرب باتجاه برقة أو التجول هنا وهناك دون استقرارٍ بناحية معينة^(٣). وقد أحلّ الفاطميون محلّهم بالبحيرة بني سنس من طيء، الذين كانوا حتى ذلك الحين ينتشرون بفلسطين حتى غزة^(٤). ويبدو بنو قُرّة ذوي أهمية في سياقنا هنا لأنهم كانوا الفريق القبلي الذي حاول حسان بن الجراح عام ٤١٤ - ٤١٥هـ/١٠٢٤م الاتصال به لإثارتة على الفاطميين؛ لكنّ الخطة فشلت إذ قبض الفاطميون على رسول حسان إلى بني قُرّة - وهو الشاعر التهامي - وقتلوه^(٥).

ولم يُنهِ العمري فصله عن العرب. ويظهر لنا من التاريخ الذي ذكره قبل نهاية كلامه بقليل أن الموت فجأةً فحال بينه وبين إتمام فصله هذا بل وكتابه. ففي كلامه عن عرب المغرب الذي أغفلناه هنا؛ يقول العمري^(٦): «فهذا ما ذكره الشريف أبو عمر عبد العزيز الإدريسي، وحدثني بذلك كلّ في صفر سنة تسع وأربعين وسبعماية». وتوفي العمري في التاسع من ذي الحجة سنة ٧٤٩هـ/١ مارس ١٣٤٩م، أي بعد تسعة شهورٍ من كتابته لتعليقه السالف الذكر. فبعد نهاية حديثه عن أعراب المغرب يبدأ العمري بذكر الأعراب المنتشرين على طرق الحجيج، فيعدّ القبائل على طريق القاهرة - مكة ثم ينقطع الكلام بقوله: «وأما طريق الركب الشامي»!!

وتبقى ملاحظةٌ أخيرةٌ تتصل بفصل العمري هذا عن العرب؛ أراها مناسبةً

(١) المقرئ: أتعاض الحنفا ٢/٢١٨.

(٢) هناك بطنٌ يحمل نفس الاسم، لكنه ينتمي إلى بني هلال؛ كان يقيم بالصعيد أواخر العصر الأيوبي: المسالك ٣/٥٧، والمقرئ: البيان ص ٢٢.

(٣) المقرئ: أتعاض الحنفا ٢/٢١٩.

(٤) أتعاض ص ٢٢٠، والبيان ص ٨ - ١٠.

(٥) انظر ماسبق.

(٦) مسالك ٣/٧٥.

هنا. إنها تتعلق بالرؤية المختلفة للأعراب لدى العمري (٧٠٠ - ٧٤٩هـ/٣٠١ - ١٣٤٩م)، وابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ/٣٠١ - ١٣٤٩م)، فنظرة القرآن للأعراب المعاصرين للنبي سلبية كما هو معروف^(١): «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً...». وابن خلدون يرى أنهم مخربون للبلاد، معنادون على طريقة في الحياة تتناقض والحضارة والعمران^(٢): «إن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب. والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية...». وتختلف رؤية العمري للأعراب عن ذلك تماماً. وخير ما يوضح ذلك تصويره لدور الأعراب وموقفهم في موقعة حمص (١٤ رجب ٦٨٠هـ/١٢٨١م) بين المماليك والإيلخانيين^(٣)؛ فقد كانت شجاعتهم وثباتهم السبب الرئيسي في تحول المعركة لصالح المسلمين؛ فأنقذوا بذلك الإسلام، وفتحوا الباب من جديد لانطلاق الجهاد الإسلامي بعد أن تضاءلت تلك الإمكانية منذ وطأت سنايك خيول المغول أرض الإسلام قبل ما يزيد على نصف قرن من الزمان. يرسم لنا العمري عن رجال العرب، المتقدمين لخوض معركة حمص صورة مليئة بالحياة والحماس والنخوة. فتحت قيادة آل فضل ومبرا^(٤) أمراء العرب من طيء، كانت تتهاذى آلاف الجياد والجمال تعج بالفرسان والحديد، وأمام الحملة كلها على جمل في هودج مكشوفة الوجه، المغنية البدوية المشهورة المعروفة بالحضرية، تتغنى بصوت عالٍ وجَزَلٍ، بشعر الشاعر المخضرم النابغة الجعدي^(٥):

وَكُنَّا حَسِينًا كُلُّ بِيضَاءِ شَحْمَةٍ لِيَالِي لَاقِينَا جُدَامَ وَجْمِيرًا
فَلَمَّا قَرَعْنَا النَّبْعَ بِالنَّبْعِ بَعْضُهُ بِيَعُضٍ أَبَتْ عِيدَانُهُ أَنْ تَكْسُرًا
سَقِينَاهُمْ كَأْسًا سَقُونَا بِمِثْلِهَا وَلَكُنْنَا كُنَّا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرًا

(١) سورة التوبة ٩/٩٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون (نشرة Quatremère) ١/٢٧٠ وما بعدها.

(٣) انظر عن المعركة: السلوك ١/٣/٦٩٠ - ٦٩٩.

(٤) قارن بزبدة الفكرة لبيرس المنصوري (سنة ٦٨٠): «... وفي رأس اليمنة شرف الدين عيسى بن مهنّا وآل فضل وآل مري وعربان البلاد الشامية ومن أنضم إليهم...».

(٥) انظر عن الشاعر: Sezgin: GAS II, 245-247.

هذا التقليد الأعرابي يصفه عبّاس العزاوي^(١) بتفصيل أكبر، فيقول إنّ العادة أن تحمّس الفرسان وتدفعهم لمزيد من الكفاح عند البدو عذراء أعرابية ذات جمالٍ متميّز، وسمعة تعلو على الشك، وأصل عريق في القبيلة. فإذا تراجع الفرسان فقد كان شأنها أن تدعوهم للعودة للقتال، وتعيّرهم بما يحدث لعيالهم إذا انهزموا؛ لذلك كان بنو لام يسمونها أيضاً: العيّادة. وتتقدّم العمارية الصفوف، لذلك كثيراً ما تكون هي أوّل مَنْ يُهاجم من جانب الخصم. وهناك مَنْ يرى أنّ أمّ المؤمنين عائشة لعبت دور العمارية في وقعة الجمل بالبصرة.

وينتهز العمري كل فرصة للثناء على الأعراب والإشادة بفضائلهم مثل الحلم والمروءة، وغيرهما من حميد الصفات. وحتى أخبار المؤرّخين عن عملهم أحياناً لصالح العدو - أي الصليبيين - يحاول العمري أن يقلّل من أهميتها بقوله إنّ الإعراب في زمانه، أي زمان الدولة المملوكية كانوا دائماً إلى جانب الإسلام، وفي مقدمة المجاهدين في سبيله^(٢).

وعليّنا هنا أن لا ننسى أنّ العمريّ كان يعتبر نفسه سليل عشيرة عربية عريقة من قُرَيْش، هم العُمريون المتحدّرون من عمر بن الخطّاب^(٣). ثم إنه يمكن القول إنّ اختلاف ابن خلدون والعمري في رؤية الأعراب ودورهم يعود إلى اختلافهما في وجهة النظر. فالتأمّل لمجرى التاريخ الإسلامي من خارج؛ ضمن نظرية معيّنة للتاريخ البشريّ؛ ربما بدا له هؤلاء الأعراب عنصراً سلبياً في المجرى العامّ للأحداث والثقافات. أما الناظر للأمور من الداخل؛ فإنه يرى فيهم جزءاً أساسياً من التطوّر التاريخي للإسلام، بحيث لو وُضعوا موضع تساؤل، لُوّضعت المنظومة الإسلامية كلّها في الموضع نفسه.

(١) عشائر العراق ١/ ٣٥٧ - ٣٦٠، ٣/ ٢٢٢؛ J. Jabbûr: The Ruwalah, in: The World of Islam (1959), pp. 195 - 198.

(٢) مسالك ٣/ ٥٦.

(٣) مسالك ٣/ ٥٦ - ٥٧.

مصادر المقال ومراجعته

- إتعاظ الخنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء للمقريزي (٢ - ٣). تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٧١ - ١٩٧٣.
- أخبار مصر للمسبّحي، محمد بن عبدالله (الجزء ١). تحقيق أمين فؤاد سيد، القاهرة ١٩٧٨.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي (١ - ٤) تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة حوالي ١٩٦٠.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١ - ٥). المكتبة الإسلامية بطهران، طهران حوالي ١٩٢٤/١٣٤٢.
- الاشتقاق لابن دريد، أبي بكر محمد بن الحسن. تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة ١٩٥٨/١٣٧٨.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد (١ - ٤). مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٢٨.
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (١ - ٢٤). طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٧١ - ١٩٥٢/١٣٩٤ - ١٩٧٤.
- الإكليل للهمداني، أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (الجزء ١). تحقيق محمد بن علي الأكوخ الحوالي، القاهرة ١٣٨٣/١٩٦٣.
- آل ربيعة الطائيون لفرحان أحمد سعيد. بيروت ١٩٨٣.
- الإمارات العربية في بلاد الشام لمحمد مرسي الشيخ. الإسكندرية ١٩٨٠.
- الإمارة الطائية في بلاد الشام لمصطفى الحيارى. عمان ١٩٧٧.

- الإنباه على قبائل الرواة لابن عبد البرّ القرطبي . نشرة مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٠/١٩٣١ .
- أنساب الأشراف للبلاذري ، أحمد بن يحيى (الجزء ١) . تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف القاهرة ١٩٥٩ .
- الإيناس في علم الأنساب للوزير المغربي ، الحسين بن عليّ بن الحسين . تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ١٤٠٠/١٩٨٠ .
- بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس (الجزء ١/١) . تحقيق محمد مصطفى ، فيسبادن ١٩٧٥ .
- بلاد العرب للأصفهاني ، الحسن بن عبدالله . تحقيق حمد الجاسر ، وصالح العلي ، الرياض ١٣٨٨/١٩٦٨ .
- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزي . تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١ .
- تاريخ أولجياتو لأبي القاسم عبدالله بن محمد القاشاني . تحقيق M. Hambly ، تهران ١٣٤٨/١٩٦٩ .
- تاريخ حلب لابن العديم (١ - ٣) . تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥١ - ١٩٦٨ .
- تاريخ الرسل والملوك للطبري . تحقيق M.J. de Goeje وآخرين ، ليدن ١٨٧٩ - ١٩٠١ .
- تاريخ الملك الظاهر لابن شدّاد ، عزّ الدين محمد بن عليّ . تحقيق أحمد حطيط ، فيسبادن ١٤٠٣/١٩٨٣ . (النشرات الإسلامية ٣١) .
- تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر ، محيي الدين . تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ .
- التيجان في ملوك حمير لابن هشام ، أبي محمد عبد الملك ، نشرة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ١٣٤٧ .
- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (١ - ٢) . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعبد المجيد قطامش ، القاهرة ١٣٨٤/١٩٦٤ .
- جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي . تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٢ .
- جمهرة النسب لابن الكلبي = Caskel, W: Gamharat an-Nasab. = Das genealogische Werk des Hisâm ibn Muhammad al-Kalbî (1-2), Leiden 1966.
- جمهرة النسب لابن الكلبي (الجزء ١) . تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، كويت ١٤٠٣/١٩٨٣ .
- (التراث العربي ٢١) .

- الحذف من نسب قريش لمؤرج بن عمرو السدوسي. تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦٠.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (١ - ٢). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٣٨٧/١٩٦٧.
- الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية لابن الدواداري = كنز الدرر الجزء ٨. تحقيق U. Haarmann، القاهرة ١٩٧١.
- الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة لحمزة بن الحسن الأصبهاني (١ - ٢). تحقيق عبد المجيد قطامش، القاهرة ١٩٧١ - ١٩٧٢.
- ديوان النابغة الجعدي. تحقيق عبدالعزيز رباح، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت بدون تاريخ.
- ذيل تجارب الأمم للروذراوري، أبي شجاع (الجزء ٣). تحقيق H.F. Amedroz، القاهرة ١٩١٢.
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر لابن عبد الظاهر، محي الدين. تحقيق عبدالعزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦.
- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة، شهاب الدين عبدالرحمن (١/٢-٢). تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ومحمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٦٢.
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة لبيبرس المنصوري. مخطوط المتحف البريطاني، No. Ar. 1233.
- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد (١ - ٤). تحقيق محمد مصطفى زيادة وآخرين، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٧٢.
- السيرة النبوية لابن هشام (١ - ٤). تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، القاهرة ١٣٥٥/١٩٣٦.
- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي لبدر الدين العيني. تحقيق فهم محمد شلتوت، القاهرة ١٩٢٦ - ١٩٢٧.
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد بن إبراهيم الحنيلي. تحقيق ناظم رشيد، بغداد ١٩٧٩.
- صبح الأعشى للقلقشندي، أبي العباس أحمد (١ - ٤). نشره دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٢/١٩١٤.
- صفة جزيرة العرب للهمداني، أبي محمد الحسن بن أحمد. تحقيق حمد الجاسر، الرياض ١٣٩٤/١٩٧٤. (نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب ١٧).

- طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب لابن رسول، الملك الأشرف عمر بن يوسف. تحقيق K.W. Zetterstéen، دمشق ١٣٦٩/١٩٤٩.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر لابن خلدون (١ - ٧). منشورات دار الكتب اللبناني، بيروت ١٩٥٩.
- عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب. تحقيق عبدالله كنون، القاهرة ١٩٥٦.
- عشائر الشام لأحمد وصفي زكريا (١ - ٢). الطبعة الثانية، دمشق ١٤٠٣/١٩٨٣.
- عشائر العراق لعباس العزاوي (١ - ٤). بغداد ١٩٣٧ - ١٩٣٨.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد (الجزء ٤). تحقيق فؤاد سيد، القاهرة ١٣٩٤/١٩٦٥.
- عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب لابن عنبه، جمال الدين أحمد بن علي. المطبع الجعفري، لكنو حوالي ١٩٠٠.
- الفاخر لأبي طالب المفضل بن مسلمة بن عاصم. تحقيق عبد العليم الطحاوي، القاهرة ١٣٨٠/١٩٦٠.
- الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الأصفهاني =
- Conquête de la Syrie et de la Palestine, Ed. C. Landberg, Leiden 1888.
- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري. تحقيق إحسان عباس، وعبدالمجيد عابدين. بيروت ١٩٧١.
- فضائل الأندلس وأهلها لابن حزم وابن سعيد والشقندي. تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت ١٩٦٨.
- في سرة غامد وزهران، نصوص، مشاهدات، انطباعات لحمد الجاسر. الرياض ١٣٩١/١٩٧١. (نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب ١٤).
- في شمال غرب الجزيرة، نصوص، مشاهدات، انطباعات لحمد الجاسر. الرياض ١٣٩٠/١٩٧٠. (نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب ١٢).
- القصد والأُمم لابن عبد البر القرطبي. نشرة مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٠/١٩٣١.
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي. تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة ١٩٨٢.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير (١ - ١٤). تحقيق C. Tornberg، ليدن ١٨٦٦ - ١٨٧٦.
- كنز الدرر لابن الدواداري. انظر الدرّة الزكية.

مجمع الأمثال للميداني، أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد النيسابوري (١ - ٢): تحقيق محمد محيي الدين عبدالمحميد، القاهرة ١٣٧٤/١٩٥٥.

المحرر لابن حبيب، أبي جعفر محمد. تحقيق Ilse Lichtenstädter، حيدر آباد الدكن ١٣٦١/١٩٤٢.

F. Wüstenfeld, Göttingen مختلف القبائل ومؤلفها لابن حبيب، أبي جعفر محمد. تحقيق ١٨٥٠.

مروج الذهب للمسعودي =

Les prairies d'or 1-7. Ed. Barbier de Maynard et Pavet de Courteille, revue et corrigée par Charles Pellat, Beirut 1966 - 1979.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (الجزء ١). تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة ١٩٢٤.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. القسم عن ممالك بيت جنكزخان. تحقيق، وشرح، وترجمة Klaus Lech، فيسبادن ١٩٦٨.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري. مخطوط طوبكابو سراي، الجزء ٣ رقم ٦٥٩٥.

المستقصى في أمثال العرب للزخشي، أبي القاسم جار الله محمود ابن عمر (١ - ٢). حيدر آباد الدكن ١٣٨١/١٩٦٢.

المعارف لابن قتيبة، أبي محمد عبدالله بن مسلم. تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة ١٩٦٠. معجم البلدان لياقوت =

Jacût's geographisches Wörterbuch 1-6. Ed. Ferdinand Wüstenfeld, Leipzig 1866-1870.

معجم الشعراء للمرزباني، أبي عبيدالله محمد بن عمران بن موسى. تحقيق عبدالستار أحمد فراج، القاهرة ١٣٧٩/١٩٦٠.

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري، أبي عبيدالله بن عبدالعزيز (١ - ٢). تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٤٥.

المناسيك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة. تحقيق حمد الجاسر، الرياض ١٣٨٩/١٩٦٩. (نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب ٩).

منتقلة الطالبية لابن طباطبا، أبو إسماعيل بن ناصر. تحقيق محمد مهدي السيد حسن الخرسان، النجف ١٣٨٨/١٩٦٨.

المنمق في أخبار قریش لمحَمَّد بن حبيب. تحقيق خورشيد أحمد فارق، حيدر آباد الدکن ١٣٨٤/١٩٦٤. (السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية ١٢٧).

المؤتلف والمختلف للآمدي، أبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى. تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة ١٣٨١/١٩٦١.

النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم للمقريزي، أبو العباس أحمد بن علي. تحقيق محمود عرنوس، القاهرة ١٩٣٧.

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشریف الإدريسي ٣ =

Al-Idrisi: Opus Geographicum (Fasc. 3). Ed. A. Bombaci, U. Rizzitano, R. Rubinacci, L. Vecchia Vaglieri, Neapoli-Roma 1972.

نسب قریش للمصعب الزبيري. تحقيق ليفي برونفسال، القاهرة ١٩٥٣.

نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى (١ - ٢). تحقيق عبدالرحمن نصرت، عمان ١٩٨٢.

نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي، أبي العباس أحمد. تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة ١٩٥٩.

الوافي بالوفيات للصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (الأجزاء ١٠، ١٦، ١٧). تحقيق جاكين سوبله، وداد القاضي، دوروتيا كرافولسكي، فيسبادن ١٤٠٠ - ١٤٠٢/١٩٨٠ - ١٩٨٢.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، شمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد (١ - ٨). تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٩ - ١٩٧٢.

وصف إفريقية والمغرب والأندلس أواسط القرن الثامن للهجرة، مقتطف من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري. تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس ١٣٤١/١٩٢٢.

هدية العارفين لإساعيل البغدادي (١ - ٢). ١٩٥١ - ١٩٥٥.

Bräunlich, E.: Beiträge zur Gesellschaftsordnung der arabischen Beduinenstämme, in: Islamica 6-7 (1933-35) p p 68-111, 182-229.

Caskel, W.: Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber. Köln-Opladen 1953.

Gaudefroy-Demombynes: La Syrie à l'époque des Mamelouks. (Bibliothèque Archéologique et Historique 3), Paris 1923.

Gottschalk, H.L.: al-Malik al-Kāmil von Egypten und seine Zeit. Wiesbaden 1958.

Halm, Heinz: Ägypten nach den mamlukischen Lebensregistern. (Beihefte zum TAVO, B 38/1-2), Bde 1-2, Wiesbaden 1979-1982.

- Krawulsky, D.: *Îrân-Das Reich der Îlhâne, Eine topografisch-historische Studie.* (Beihefte zum TAVO Nr. B 17), Wiesbaden 1978.
- Little, D.P.: *An Introduction to Mamlûk Historiography.* (Freiburger Islamstudien 2), Wiesbaden 1970.
- El² = *The Encyclopaedia of Islam.* Ed. E. van Donzel, B Lewis, Ch. Pellat, Leiden 1960 etc.
- Oppenheim, Max Freiherr von: *Die Beduinen*, Vol. 1-4/1.2., Leipzig 1939-1968.
- Quatremère, E.: *Mémoires sur les tribus Arabes établies en Égypte*, in: *Mémoires géographiques et historiques sur l'Égypte.* Vol. 2 p p. 190-219, Paris 1911.
- Notice de l'ouvrage qui a pour titre: *Mesalek alabsar fi memalek alamsar.* (Manuscr. arabe de la Bibl. du Roi No. 583) in: *Notices et Extraits des Manuscrits de la Bibliothèque du Roi* 13 (1838) p p. 151-384.
- Rothstein, G.: *Die Dynastie der Lahmidin in al-Hîra.* Berlin 1899.
- Sadeque, S.F.: *Baybars I of Egypt.* Oxford Univ. Press, Pakistan 1956.
- Sezgin GAS II: *Geschichte des Arabischen Schrifttums von F. Sezgin.* Vol. 2 (Poesie), Leiden 1975.
- Thorau, P.: *Sultan Baibars I von Ägypten.* Diss. Tübingen 1985.
- Tritton, A.S.: *The tribes of Syria in the Fourteenth and fifteenth Centuries.* BSOAS 12 (1948) p p. 567-573.
- Wardi, Ali: *Soziologie des Nomadentums.* Trans. by I. al-Haidari and G. Weirauch. Darmstadt 1972.
- Wellhausen, J.: *Das arabische Reich und sein Sturz.* Berlin 1902.
- Wissmann, Hermann von: *Bauer, Nomade und Stadt im islamischen Orient*, in: *Die Welt des Islam und die Gegenwart* p p. 22-64 Ed. by Rudi Paret, Stuttgart 1961.
- Wüstenfeld, F.: *Genealogische Tabellen der arabischen Stämme und Familien.* Vol. 1-2, Göttingen 1852-1853.
- El-Macrixi's *Abhandlungen über die in Aegyten eingewanderten arabischen Stämme.* Ed. and Transl. in: *Göttinger Studien* 1847, 2. Abtlg. p p. 409-492.
- Zetterstéen, K.V. (Ed.): *Beiträge zur Geschichte der Mamlûkensultane in den Jahren 690-741 der Hîra.* Leiden 1919.